ثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم

دراسة تفسيرية موضوعية

إعداد

د/ محمد عبد النبي علي إبراهيم الحفناوي

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

"ثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم.. دراسة تفسيرية موضوعية".

محمد عبد النبي علي إبراهيم الحفناوي.

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق.

البريد الإلكتروني : mohamedelhefnawy2878.el@azhar.edu.eg

الملخص :

تدور هذه الورقة البحثية حول الآيات القرآنية التي تضمنت ثنائية المرض والشفاء، ودراستها دراسة إبستيمية، في ظل معطيات حقل التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، والحقول المعرفية المساندة.

وقد اقتضت طبيعة هذه الورقة البحثية أن تكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم فهرسين أحدهما: للمصادر والمراجع، وثانيهما: للموضوعات.

أما المقدمة: فعن أطر الموضوع العامة من أسباب اختياره، وأهدافه، ومشكلاته، ومنهجه، وتقسيم خطته. **والتمهيد: تصورات ومصطلحات.** تكشيفا مختصرا حول دعائم الفكرة البحثية، **والمبحث الأول: المرض في القرآن الكريم بين البدني والقلبي.. (العضوي والروحي).** استقراء موضوعيا لمنظومة المرض في الكتاب الحكيم، وفق ثنائيات التناول المعرفي لها، **والمبحث الثاني: الشفاء في القرآن الكريم بين الحسي والمعنوي.. (الدواء والدعاء).** كذا استقراء موضوعيا لمنظومة الشفاء في الكتاب الحكيم، عبر معيار المنطوق والمصداق، **والمبحث الثالث:** "**وإذا مرضت فهو يشفين**" **بين التأثر والتأثير.** إنتاجا للثنائية التقابلية للمنظومة القرآنية، نجاة وطلبا، والخاتمة: تشتمل على أهم النتائج والتوصيات، **وأخيرا: الفهارس.**

الكلمات المفتاحية: "ثنائيات– مرض – شفاء – موضوعي – داء – دواء – عضوي – قلبي".

These are a few words that sum up the idea of a research paper that God has blessed to complete under the title: "The duality of illness and healing in the Holy Qur'an... An objective explanatory study".

Muhammad Abdul-Nabi Ali Ibrahim Al-Hefnawi.
Department of interpretation and Quranic sciences at the Faculty of Islamic and Arabic Studies for Boys in Disouq.
Email : mohamedelhefnawy2878.el@azhar.edu.eg

Abstract :

This research paper revolves around the Qur'anic verses that included the duality of disease and healing, and its study is inductive, in light of the data of the field of objective interpretation of the Holy Qur'an, and the supporting knowledge fields.

The nature of this research paper required that it be an introduction, a preface, three chapters, and a conclusion, then two indexes, one of them: for sources and references, and the second: for topics.

As for the introduction: about the general frameworks of the topic, the reasons for its selection, its objectives, its problems, its approach, and the division of its plan. Introduction: Concepts and Terms. A brief disclosure about the pillars of the research idea, and the first topic: Disease in the Holy Qur'an between the physical and the heart (organic and spiritual). Objectively extrapolation of the disease system in the wise book, according to the dualities of the cognitive approach to it, and the second topic: healing in the Holy Qur'an between the sensory and the moral (medicine and supplication). As well as an objective extrapolation of the healing system in the wise book, through the criterion of utterance and credibility, and the third topic: "And if you get sick, he heals" between influence and influence. A production of the contrastive duality of the Qur'anic system, Najat and Talaba, and the conclusion: it includes the most important results and recommendations, and finally: the indexes.

By God, I ask that I have succeeded in what I sought, and our last prayer is that praise be to God, Lord of the worlds.

Keywords: "Dualities – Disease – Healing – Objective – Disease – Medicine – Organic - Heart".

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولىّ الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، ﷺ وعلى آله الهادين المهديين، وأصحابه الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـــد،،،

فإن القرآن الكريم باعتباريته الإعجازية والخاتمية، وبيقينية الشمولية أنه ما فُرط فيه من شيء، وأنه ما ترك خيرا إلا دل عليه، ولا شرا إلا حذر منه – من منطلق هذه الاعتبارات – قدّم القرآن الكريم برامج عدة لكل الإنسان، تُقَوم أمره وتُقَيم أمره.

فقدّم – وصحح – المفاهيم العقدية والتعبدية، لإصلاحه في أمره الديني، وكذا قدّم الإجراءات الإصلاحية في المعاملات والعلاقات الخاصة والعامة، كما قدّم هيكلا كاملا تربويا، ونفسيا، واقتصاديا، واجتماعيا، وجسديا.. إلخ، وفق منظومة إصلاح الإنسان (كل الإنسان) زمانا ومكانا.

حياة كاملة قدمها القرآن الكريم في هذه الأرض، متى قام الإنسان بتفعيلها، قدمت له معايير النجاة والسلامة بشقيها العلمي والعملي في أدق وأخص قضاياه.

فالقرآن الكريم كتاب لا كباقي الكتب– يحوي جملا مفيدة، وأفكارا جديدة، ونظريات حديثة – وحسب، إنما هو مهيمن على هذا كله، ويزيد أنه حي متفاعل.

ولعل مما يلفت نظر قارئ هذا الكتاب الجليل، تلك الثنائية التقابلية في كل مراحلها عبر السرد القرآني الحكيم، بصورة جلية، لا لبس فيها ولا ضباب.

سردا قرآنيا عجيبا/ دقيقا/ بليغا/ معجزا لـ ثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم – باعتبار العِلِيّة المرضية، والعِلِيّة الاستشفائية – التي أفرد لها القرآن الكريم مساحة ملفتة للنظر حقا، سواء لمنظومة المرض ومنتجاته، أو منظومة الشفاء وتداخلاته.

فتقف أول ما تقف على عتبة المنظومة المرضية بشقها الأول القلبي، تصارحك بديمومة التوبيخ والعقاب عليها، وضرورة الإسراع في معالجتها والنجاة منها.

ثم بشقها الثاني البدني – القدري منها والعِلْيّ – يكتنفها دائما التخفيف، والتيسير، والود الإلهي، والثواب والجزاء عليها.

كذلك أيها الناظر في كتابك الأجل، المتدبر لمعانيه المقدسة، تجد معمارية الشفاء في القرآن الحكيم، تصارحك طلبا بكيفية تحقيقه، وآلية تمريره سواء عبر القناة المادية: الدواء الحسي، أو الميتامادية: العطاء الإلهي.

وفي كلٍ أشار القرآن الكريم ببراعة نظم، وإتقان بيان إلى هذه الثنائية التقابلية، داعما منظومته بقطبي التأثر والتأثير.

من هنا استعنت بالله – تعالى – في العكوف على القرآن الكريم، لمعايشة تلك الثنائية في منظومتها المقدسة، في محاولة إبستيمية لجميع الآيات القرآنية التي تتمثل فيها محاور هذه الدراسة وفق معيارية حقل التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، فجاءت هذه الورقة البحثية تحت عنوان:

"ثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم .. دراسة تفسيرية موضوعية"

وأرجو أن أكون قد قدمتُ خدمة لكتاب الله – تعالى – وعملا ينتفع منه المسلمون عامة، وأهل التفسير خاصة.

❁❁❁

أسباب اختيار الموضوع:

- تلبية لنداء حقل التفسير الموضوعي، الذي يحتاج إلى مزيد عناية في الدراسات القرآنية الحديثة، لما له من أثر جلي في إثراء المشروع القرآني الحضاري للإنسان، والذي من مفرداته موضوع فكرة البحث.
- ارتباط الفكرة البحثية – عبر منظار الثنائية – بإبراز معطى قرآني جديد من حيث سعة المعاني والمآلات.
- محاولة الوقوف على معاني تلك الثنائية في التركيب القرآني، لإنتاج مردودها العلمي والمجتمعي في الإنسان، الذي هو مناط التنزيل وغايته.

أهداف الموضوع:

- معالجة الفكرة الرئيسة للورقة البحثية، وهي ثنائية المرض والشفاء في النص القرآني، عبر منصة التفسير الموضوعي، وتقديمها في قالب حضاري قشيب.
- تطلع إلى لون جديد من ألوان استنطاق النص المقدس، وصبغ المجتمع ببعض أصباغه الشريفة، ليرى ذاك الإنسان المعاصر مدى جِدية الكتاب الحكيم في استيعابه، بله الأخذ بيديه إلى معالم النجاة والسعادة.
- تطلع إلى هيكل قرآني لإحدى برامجه الإصلاحية، التي قدمها للإنسان سعيا لإصلاح جسده، سيما مع شدة حرصه لبدن سليم، وصحة فاعلة.

مشكلات البحث:

يناط بالورقة البحثية أن تعالج بعض ما أثارته من إشكاليات، يمكن حصرها في:

- الإجابة على بعض الأسئلة الكشفية التي أثارتها تلك الثنائية: هل هناك حقا آيات كريمة تعالج هذه الثنائية؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما حجم تلك المساحة التي أعطاها القرآن الكريم لمنظومة المرض والشفاء؟ وما هي الأمراض التي تحدث عنها القرآن الكريم؟ وكذا ما هي منظومة الشفاء التي تحدث عنها الكتاب الحكيم؟ أهي قدرية أم دوائية؟ وهل من علة إلهية لسرد هذه الثنائية في الكتاب الحكيم؟
- استنطاق النص الشريف من خلال قراءة إبستيمية وفق معمارية التفسير الموضوعي لتلك الآيات القرآنية التي جمعت تلك الثنائية، فعلى حد بحثي – القاصر – لم أجد من جمعها جمعا دقيقا، فضلا عن التطرق إليها بدراسة واعية حضارية، وتقديمها للحقل المجتمعي عامة، والدراسات القرآنية خاصة.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة هذه الورقة البحثية أن تتبنى الاتجاه الموضوعي في دراسة النص الشريف، عبر الخطوات التالية:

- قمت باستقراء القرآن الكريم كاملا، لاستخراج الآيات القرآنية محل الفكرة البحثية، سواء كان مناطها صريحا أو ظنيا، وكذا المعاجم المتخصصة.
- تقسيم الآيات القرآنية مناط الفكرة المعنية وفق معمارية التفسير الموضوعي، لتكون محط تكشيف وبيان، ثم استخراج سعة المعطى التفسيري منها.
- قمت بتأسيس وتطبيق الثنائية القرآنية – محل الفكرة البحثية – من خلال أرخبيلات المعارف المساندة للنظير القرآني، وتنسيقها عبر مفاصل الورقة البحثية.
- **قمت بانتخاب الآيات الكريمات التي تناولت سردية المرض والشفاء في النص الشريف، منطوقا ولفظا، دون الاحتمالية أو الضمنية**، حتى لا تتسع مساعي الورقة البحثية بما يخالف شرطها المؤسس، وإلا فكل توجيه إلهي هو في محاميله الشفاء، وفي مخالفته المرض، على الصعيدين الحسي والمعنوي.
- قمت ببناء الورقة البحثية بناءً أكاديميا، من عزو الآيات القرآنية بذكر السورة والآية، وكذا الترجمة للأعلام الوارد ذكرهم بالورقة البحثية، عدا المشهورين منهم كالأنبياء – عليهم السلام – وكبار الصحابة ﷺ والأئمة، وكذا بتأصيل النقول العامة والخاصة، والمسائل العلمية من مصادرها الأصيلة، بذكر اسم المرجع ورقم الجزء والصفحة فقط في هوامش الصفحات، والاكتفاء بذكر بيانات المراجع بفهرسها المخصص لها، خشية إثقال الهوامش بما هو مكرر، وكذا ترتيب المراجع داخل الحواشي، حسب ترتيب وفاة المصنفين، فلا يخفى ضرورة هذا في معرفة نسب المعلومة، وتوثيقها عبر فتراتها الزمنية المختلفة.

- ⇦ العناية بالآيات الكريمات محل الشواهد، بما يناسب ثنائية المرض والشفاء، واستنطاقها بما يؤسس لها، دون التعرض للمباحث التفسيرية التحليلية، فلا يخفى اختلاف الدرس التفسيري الموضوعي هنا عنه في التحليلي.
- ⇦ التقديم والتعليق بين يدي الآيات القرآنية، والأفكار السردية، حسب ما تمليه الحاجة البحثية، مع التوفيق بين الآراء ما أمكن ذلك، وإلا فترجيح ما يمكن ترجيحه حسب الشاهد والدليل.

خطة البحث:

تقتضي طبيعة هذه الورقة البحثية أن تكون في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس عام للمراجع، وآخر للموضوعات.

المقدمة: تحدثت عن أطر الموضوع العامة من أسباب اختياره، وأهدافه، ومشكلاته، ومنهجه، وتقسيم خطته.

التمهيد: تصورات ومصطلحات.

المبحث الأول: المرض في القرآن الكريم بين البدني والقلبي.. (العضوي والروحي).

المبحث الثاني: الشفاء في القرآن الكريم بين الحسي والمعنوي.. (الدواء والدعاء).

المبحث الثالث: "وإذا مرضت فهو يشفين" بين التأثر والتأثير.

الخاتمة: تشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

وأخيرا: الفهرس العام للمراجع مرتبة على حروف المعجم، والفهرس الخاص للموضوعات.

وفى الختام ... أحمد الله – تعالى – وأشكره أولاً وأخيراً، ظاهراً وباطناً على أن وفقني لإتمام هذا الورقة البحثية، سائلاً العلي العظيم أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأستغفره من كل زلة قلم أو فكر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

تصورات ومصطلحات

بدهي قبل البدء في السير نحو مَعْلَم ما، التعرف عليه، والسبل الناجعة إليه، ليتسنى الوقوف على أغواره، والكشف عن مضامينه وأسراره، والتمييز بينه وبين أشباهه وأقرانه.

من هذا المنطق الطبعي، كان هذا التمهيد للفكرة البحثية، جامعا مختصرا، يحسن به التصور، ويكمل به التعرف.

تعريف المرض:

المرض لغة: "حالة تعتري الإنسان تخرج به عن حد الصحة في أي شيء، فهو نقيض الصحة، ويكون في البدن والدين جميعا، كما الصحة في الدين والبدن، فيكون حسيا كالفتور في الصحة، ومعنويا كالفتور عن الحق"(١).

تبين من هذه التقدمة، أن مصطلح المرض يطلق لغة على معنيين: **أحدهما:** ما يصيب البدن في صحته من عِلة داخلية أو خارجية. و**ثانيهما:** ما يصيب القلب في دينه من نفاق أو بخل أو جهل.

المرض اصطلاحا: "الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان"(٢).

وبذا تكون الدلالة الاصطلاحية مرادفة للغوية، إذا اعتبرنا مفهوم الاعتدال هو مطلق الصحة، سواء العضوية الجسدية، أو القلبية النفسية.

مصطلح المرض في القرآن الكريم:

جاء مصطلح المرض في القرآن الكريم على نوعين:

أحدهما: عضوي/ جسماني/ بدني. ومنه قوله ﷻ: "﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾"(٣).

---

(١) ينظر: الصحاح للجوهري ١١٠٦/٣، مقاييس اللغة لابن فارس ٣١١/٥، لسان العرب لابن منظور ٢٣١/٧، تاج العروس للزبيدي ٥٣/١٩، (م.ر.ض) في كلٍ.

(٢) ينظر: الزاهر لابن الأنباري (٥٨٥/١)، تهذيب اللغة للأزهري (م.ر.ض) (٣٣٧٨/٤)، المفردات للراغب (ص٧٦٥)، البصائر للفيروزآبادي (٤٩٢/٤).

(٣) البقرة: من الآية ١٨٤.

ثانيهما: قلبي/ نفسي/ روحي. ومنه قوله – تعالى –: "﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾"(١)، كالجهل، والجبن، والبخل، والنفاق، وغيرها من الرذائل الخلقية(٢).

فالذي يظهر من هذا المختصر: أن مفهوم المرض ضد الصحة على طول الخط، سواء البدنية، أو النفسية، أو القلبية، أو الأخلاقية.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لماذا سميت الصفات المذمومة – المرض المعنوي – باسم المرض الذي هو مصداق على العلة العضوية؟

تنوعت الإجابة عن هذا السؤال الرئيس عبر مدونة التفسير والمعاجم القرآنية(٣)، وطبعي أن محل الورقة البحثية الإشارة، لا العبارة المنبسطة.

القرآن الكريم عبر عن النفاق والكفر ونحوهما من الرذائل بمصطلحية المرض، لكون هذه الصفات مانعة من إدراك وتحصيل أضداها في حرم القلب، كالمرض العضوي تماما في منعه لحرم البدن من إدراك الصحة وسلطان التصرف الكامل.

فكما حالة البدن المرضية تجثم على قوته، وتمنع حدته وإشراقه، كذلك هذه الحالة المذمومة التي اعترت القلب، سميت مرضا، لأنها تجثم عليه، تمنع نفاذ الحق إليه، تكثف الظلمة عليه، فلا يرى نورا ولا يعرف خيرا(٤).

كذلك مما أنعم الله به – **تدبرا** – في هذا المصداق، أن القرآن الكريم قد حاز السبق في مهارة تصوير المشاهد بقليل الألفاظ، فإن النفس البشرية بطبيعتها تميل لذة وفهما إلى المتماثلات والمتشابهات، سواء في حالة الحسن، أو في حالة القبح، فالإنسان – بطبعه – يفهم بقوة بلا اختلاف حالة المرض الجسماني، ويدرك بديمومة بلا ضباب شعور الألم الجسماني.

---

(١) البقرة: من الآية ١٠.

(٢) ينظر: المفردات للراغب (ص٧٦٥)، البصائر للفيروزآبادي (٤٩٢/٤)، نزهة الأعين النواظر (ص٥٤٦)، عمدة الحفاظ للسمين (٨٤/٤).

(٣) ينظر: البسيط للواحدي (١٤٤/٢)، مفردات الراغب (ص٧٦٥)، المحرر لابن عطية (٩٢/١)، التفسير الكبير للرازي (٣٠٤/٢)، أنوار التنزيل للبيضاوي(٤٥/١).

(٤) ينظر: المعجم الاشتقاقي لشيخ مشايخنا أ.د/ محمد حسن جبل (٢٠٦٣/٤) بتصرف.

فعندما يأخذه القرآن الكريم اصطلاحا وتصويرا، من حالة ومصطلح وشعور يدركه تماما وهو حالة علة الجسد، إلى الحالة الأهم والأبقى والأعنى، وهي حالة علة القلب، بخطرية المصطلح ومعطياته وكَمِّه المعرفي الذي يحمله بداخله، بله ما يحمله الإنسان بمكنونه، يدرك حينئذ بمجرد نطق المصطلح خطره وتوصيفه وآثاره، بل يدرك أيضا ما يلزم حينئذ وما ينبغي تجاهه.

تعريف الشفاء:

الشفاء لغة: الدواء، أي: ما يبرئ من المرض، يقال: شفاه الله، واستشفى فلان، إذا طلب الشفاء، والشفاء أصله البرء من المرض، ثم وضع موضع العلاج والدواء(١).

وإنما سمى الشفاء شفاء، لغلبته للمرض وإشفائه عليه، فالمرض ثقل وشدة، والشفاء خلوص وقطع وإنهاء لهذا الثقل، كأنه وصل بالمرض إلى حافة الجسم فتخلص منه، حتى إن العامة تعبر عن شفاء الإنسان بأنه "خف"(٢).

الشفاء اصطلاحا: تعددت معاني الشفاء في عرف الاصطلاح التعريفي – رغم عودتها إلى مرد واحد – من أشهرها(٣):

الشفاء: "عودة نظام الصحة للبدن بعد اختلاله واعتداله". "ملائمة النفس بما يزيل عنها الأذى". وهي مُثُل ترد جميعها إلى دلالة المعنى الأم، مطلق الصحة/ العافية، سواء العضوية الجسدية، أو القلبية النفسية.

مصطلح الشفاء في القرآن الكريم:

كما جاء مصطلح المرض في القرآن الكريم على نوعين، كذا جاء مصطلح الشفاء تقابليا له على نوعين، محققا منظومة الثنائية، وهما:

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢٩٠/١١)، مقاييس اللغة لابن فارس (١٩٩/٣)، المحكم لابن سيده (١٠٤/٨)، تاج العروس للزبيدي (٣٨٢/٣٨)، (ش.ف.ى) في كلٍ.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (ش.ف.ى) (١٩٩/٣)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١١٥١/٢).

(٣) ينظر: المفردات للراغب (ص٤٥٩)، نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٣٣٤/٢)، التعريفات للجرجاني (١٦٨/١)، الإتقان للسيوطي (٣٣٤/٢)، التوقيف للمناوي (٤٣١/١).

أحـدهما: عضـوي/ بـدني. ومنـه قولـه ﷻ: "﴿ شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾"(١).

ثانيهمـا: قلبـي/ روحـي. ومنـه قولـه ﷻ: "﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ ﴾"(٢).

ꕥ وإذا نهض ذات السؤال هنا في عِلية التعبير عن دواء الروح – الحالة المعنوية – بمصطلحية الشفاء، فإنه يجاب حينئذ بما أجيب على ذات السؤال – التقابلي – في التعبير بمصطلحية المرض عن الحالة المعنوية.

ففي سيرنا التأصيلي، لا زالت تأخذنا دائما في كل محطة سردية = معمارية الثنائية التقابلية بين مصطلحي المرض والشفاء في النص الشريف.

❁❁❁

ꕥ **دلالات استعمال المصطلح في النص الجليل:**

بإنعام النظر في الألفاظ القرآنية يمكن رصد ظاهرة تفرد بها هذا الكتاب الحكيم، وهي تقلبات المصطلح القرآني على أكثر من دلالة، وتقلبات الدلالة الواحدة في أكثر من قالب مصطلحي(٣)، يمكن الربط بين هذه القوالب وتلك الدلالات من خلال معطى الجذر اللغوي، والتطور الدلالي(٤).

وإذا نظرنا إلى ثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم من خلال تلك الظاهرة، نجد أن هذه الثنائية أعطت منتجا متنوعا من الألفاظ والمعاني التي تدل عليها، تلبست بقالب مصطلحي مختلف، إلا أنه ارتبط بطرف سياقها الاستعمالي.

---

(١) النحل: من الآية ٦٩.

(٢) الإسراء: من الآية ٨٢.

(٣) وهذا ما يعرف في حقل الدراسات القرآنية بـ: علم الوجوه والنظائر.

(٤) وهو ما يسمى في الدراسات الحديثة بـ: الألفاظ والمعاني ذات الصلة، ولكن آثرت تلك العنونة، لتفيد إرادة الورقة البحثية للألفاظ المرتبطة بثنائية المرض والشفاء من داخل النص لا من خارجه، بعكس العنونة الحديثة – الألفاظ ذات الصلة – التي تفيد داخل النص وخارجه.

أولا: مصطلحات المرض في الكتاب الحكيم بين الاستعمال والدلالة:

من خلال حصر مصطلح المرض في القرآن الكريم – استعمالا ومعنى[١] – وعرضه على مائدة المعجمية التفسيرية، تبين تولد مجموعة من المعاني نطقت بها لفظية المصطلح، وكذا تولد مجموعة من الألفاظ التي دلت بمفهومها على معنى المصطلح دون صريح لفظه، وبيان ذلك على سبيل المثالية لا الحصرية، وفق النحو التالي[٢]:

❖ "**أذى**": الأذى هو "مطلق ما يصل إلى الإنسان من الضرر"، إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته دنيويا كان أو أخرويا، وكذا يطلق على المكروه الخفيف[٣].

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المصطلح عبر دلالات متعددة[٤]، على رأس هذه المحاور الاستعمالية، دلالة المرض الجسدي[٥]، ومنه قوله ﷻ: "﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾"[٦].

---

(١) والقصد حصر الألفاظ القرآنية التي دلت على لفظ المرض، سواء كانت بمنطوقها، أو بمفهومها، والمنطوق بما دل على الحقيقة والمجاز، وكذا المفهوم، وكذا الإشارة المختصرة إلى المعنى القصدي، دون التشعب التفسيري، حتى لا يخرج السرد عن مقصدية الورقة البحثية.

(٢) اختير لترتيب استعمال الألفاظ والمعاني ذات الصلة بمصطلح المرض في القرآن الكريم، الترتيب الهجائي، حتى يسهل الرجوع إليها، كما الحال في معاجم المفردات.

(٣) ينظر: مفردات الراغب (ص٧١)، البصائر للفيروزآبادي (٧٢/٢).

(٤) ينظر: الوجوه والنظائر للدمغاني (٤١/١)، نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (ص١٦١)، عمدة الحفاظ للسمين (٨١/١)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٦٩٥/٢).

(٥) طبعي أن هذه الورقة البحثية ليست محلا للسرد التحليلي لكل النصوص، والمقارنة فضلا عن الترجيح، إنما القصد هنا في باب التصور والاصطلاح أن تشير إلى القاسم الدلالي بين مصطلحية المرض كأصل، ودلالات الألفاظ المصاحبة لهذا الأصل – وإن تغير مبناها – وعِلية اختيار هذا اللفظ قصدا دون غيره ليدل على مفهومية المرض. ويجاب تدبرا: أن مصطلح الأذى يحمل دلالة كَميّة أقل من دلالة مصطلح المرض، من ناحية اتساع كلمة المرض لتشمل كل أنواعه، وآثاره، على الحين أن الأذى يفيد المرض القليل، سواء كان نفسيا، أو بدنيا، وكذا يفيد المرض الموضعي، وكذا يفيد الإيلام الأقل رتبة، فدلالة الأذى أقل عطاء وأثرا من دلالة المرض، فقصد الكتاب الحكيم – حينئذ – هو تصوير المشهد السياقي بالأقل رتبة، تنويها أو تنبيها أو إرشادا أو تخفيفا.. الخ من الأغراض.

(٦) البقرة: من الآية ١٩٦. وينظر: جامع البيان للطبري (٥٩/٣)، الكشاف للزمخشري (٢٤١/١)، زاد المسير لابن الجوزي (٦٠/١).

- "أَلَم": الألم هو: "الوجع الذي يسري بالبدن أو النفس"، وقد يقيد بالشديد[1]، ومنه قوله ﷻ: "﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ ﴾"[2]، فالقصد ذاك الشعور الذي يسري بالجسد، ألما وشدة ووجعا.
- "برص": البرص داء معروف – أعاذنا الله منه – وهو بياض يظهر في ظاهر البدن، على شكل لمعة تخالف سائر لون الجسد[3].

ولأنه مرض عسير قديم، أشار القرآن الكريم إلى الشفاء منه معجزة لنبي من أنبيائه ﷻ، فقال ﷻ عن عيسى عليه السلام: "﴿ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾"[4]، وقال ﷻ: "﴿ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِي ﴾"[5].

- "**بيض**": الأبيض ضد السواد، ومنه اللون المعروف، ويدل على النقاء والتجرد الذي ضد الكثافة[6].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري (أ.ل.م) (٢٨٩/١٥)، مقاييس اللغة لابن فارس (أ.ل.م) (١٢٦/١)، مفردات الراغب (ص٨٢)، عمدة الحفاظ للسمين (١٠٤/١)، المعجم الاشتقاقي لجبل ٢٣٣٩/٤.

(٢) النساء: من الآية ١٠٤. وقد استعمل القرآن الكريم هذا المصطلح أثرا تصويريا لذاك الشعور الذي يسري بالجسد، أو بالنفس، مما يزيد الموصوف إيلاما ووجعا فوق ألمه ووجعه. والقصد التدبري هنا: أُستعمل هذا المصطلح المشترك، لدلالة في الأثر المترتب، فالتهويل أو التعبير الذي أراده القرآن صَوره بكلمة مفادها شعوري، فالألم ملحق أصيل من ملحقات المرض، بل هو الأصل، لأنه هو المحرك الأول لطلب الاستشفاء نجاة من أوجاع المرض، فهو شعور مدرك تماما، لذلك هو يحمل دلالة شعورية أصيلة وثيقة الصلة مع مصطلح المرض.

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (ب.ر.ص) (١٢٧/١٢)، مقاييس اللغة لابن فارس (ب.ر.ص) (٢١٩/١)، المفردات للراغب (ص١١٨)، نزهة الأعين لابن الجوزي (ص٣٦٧)، تاج العروس للزبيدي (ب.ر.ص) (٤٨٦/١٧)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٠٦/١).

(٤) آل عمران: من الآية ٤٩.

(٥) المائدة: من الآية ١١٠.

(٦) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (ب.ي.ض) (٣٢٦/١)، البسيط للواحدي (٢١٤/١٢)، المفردات للراغب (ص١٥٤)، التفسير الكبير للرازي (٤٩٨/١٨)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٠١/٤)، روح المعاني للألوسي (٣٩/٧)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٣٢/١).

وقد استعمل القرآن الكريم مادة "بَيْض" على معان متعددة، منها ما يخص محورية الورقة البحثية، وهو مصطلح المرض، فمن مشاهير دلالتها، المرض الجسدي، كالعمى – جزئيا أو كليا – وكذا البرص(١).

قال الله ﷻ: "﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾"(٢)، وقال ﷻ: "﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾"(٣).

"حرض": الحرض هو: كل ما لا يعتد به، ولا خير فيه، ثم أطق على التلف والهلاك والضعف، ويقال لكل مريض أشرف على الهلاك، وكذا يقال لكل من أذابه الحزن أو العشق، لكونه أشرف على الهلاك مما حلّ به(٤). به(٤).

وقد استعمل القرآن الكريم مادة "حرض" عبر دلالتها اللزومية، والتي من مشاهيرها الدلالة على المرض الجسدي والنفسي(٥)، قال ﷻ: "﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾"(١).

---

(١) والقصد التدبري هنا: أن القرآن الكريم استعمل مصطلحا بكرا لا علاقة له بمنظومة المرض، فيمكن أن يتحمل أي قدر من الدلالات التي يريدها النص، فمزاج النص وفحواه يحوى بجلالة البيان الإلهي من خلال التعبير عن مرض عمى العين ببياض العين، فالعين انقلبت من حال الجمع بين الأبيض والأسود – حالة الإبصار – إلى حالة البياض المطلق، والعين لا تصل إلى هذه الحال إلا باستمرارية البكاء وديموميته، فاختار القرآن كلمة بكرا حمّلها كَمّا دلاليا للقاسم المشترك بينها وبين منظومة المرض، في أمراض العيون المعروفة، بخلاف كلمة العمى الأصيلة، فإنها تفيد ذهاب البصر كلية، بسبب أو بدون، إنما البياض لا يكون إلا من ديمومة الدموع، ويكون للبعض أو الكل، فضلا عن الحالة الشعورية التصورية الناجمة عن اللفظ، فأفادت معطى دلالي وشعوري أوسع من الأصل.

(٢) يوسف: الآية ٨٤.

(٣) طه: الآية ٢٢. وكذا في أربعة مواضع أخرى في القرآن الكريم: الأعراف: الآية ١٠٨، الشعراء: الآية ٣٣، النمل: الآية ١٢، القصص: الآية ٣٢.

(٤) ينظر: الصحاح للجوهري (١٠٧٠/٣)، مقاييس اللغة لابن فارس (٤١/٢)، مفردات الراغب (ص٢٢٨)، لسان العرب لابن منظور (١٣٥/٧)، عمدة الحفاظ للسمين (٣٩٢/١)، تاج العروس للزبيدي (٢٨٤/١٨)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٤١٠/١)، (ح.ر.ض) في كلٍ.

(٥) والقصد التدبري هنا: أن القرآن الكريم آثر مصطلحية الحرض، لتدل على منظومة المرض، دون عينية المصطلح الأم، لأن في دلالة الحرض ما ليس في غيرها، فالمنتج الدلالي للمرض في =

❁ "**خبل**": الخبل هو: فساد يلحق بعض أعضاء الجسم أو كلها، فيورث الإنسان اضطرابا، ويطلق على الجنون، والمرض الجسدي والعقلي والنفسي، وعلى الجرح المؤدي إلى الضعف في الحركة كذلك(٢).

فالملاحظ أن الأصل في هذا المصطلح تحمله لكَمٍّ معلوماتي تدور دلالته الأصلية حول – منظومة المرض – علة في الأعضاء، مما يؤدي إلى اختلال في الجسم، أو العقل، أو القلب، فيقود إلى اضطراب وسوء تصرف.

ثم انتقلت هذه الدلالة إلى معنى وقوع الاضطراب في الفعل والقول والموقف(٣)، ومنه قوله ﷻ: "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا ﴾"(٤)، وقوله ﷻ: "﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا ﴾"(٥).

=

مصطلح الحرض يفيد مجموعة دلالات من خلال تذوق عطاء المصطلح، منها: أن مصطلح الحرض بذاته يفيد المرض العضوي والنفسي معا، فهو يفيد فساد البدن والعقل والمذهب والروح.. إلخ، وأيضا يفيد حالة وصفية للمريض لا يفيدها غيره من المصطلحات، وهي حالة رضا المريض بحالته، فمن معاني الحرض التزيين والحث على الشيء، بله الهلاك في مخالة ما يحرض عليه الإنسان، فتحمل كلمة الحرض معنى دقيقا في معايشة حالة نفسية تذيب الإنسان وينغمس فيها رغم هلاكه منها، وهي من معاني الإذابة بالحزن أو العشق، وهو وصف دقيق لحالة سيدنا يعقوب عليه السلام، إلى غير ذلك مما يفيضه العيش مع هذا المصطلح العجيب ودقائقه البليغة، التي لا تتسع لها هذه الورقة البحثية.

(١) يوسف: الآية ٨٥.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (خ.ب.ل) (٢٤٢/٢)، المفردات للراغب (ص٢٧٤)، البحر المحيط لأبي حيان (٣٠٧/٣)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٥٢٧/١).

(٣) والقصد التدبري هنا: أن القرآن الكريم استعمل مصطلحا تصويريا مدركا بذهن الإنسان، وهو مصطلح الخبل، الذي يشير إلى حالة مرضية معروفة، تعيق الإنسان عن حسن التصرف في الأمور عقليا وجسديا، فالشيء الخبل هو الشيء الذي فُرِغ من باطنه، فكذلك العضو الخبل قد فرغ من قوته وفسد، فعندما استعار القرآن الكريم هذا المصطلح من منظومة المرض بمشاهده التصويرية المعروفة، إلى الساحات التعبيرية العامة، يُدرِك المخاطب مباشرة المعنى بلاغيا تصويريا قويا، من أقرب مشهد، وأدق تعبير، وهذه بعض آثار انتقال المصطلح دلالة من منظومة إلى أخرى.

(٤) آل عمران: من الآية ١١٨.

(٥) التوبة: من الآية ٤٧.

❁ "**رجز**": الرجز هو: مطلق ما يدل على الاضطراب والقلقة، والأصل: اسم لداء يصيب الإبل في أعجازها، يجعلها ضعيفة مضطربة في فخذها إذا أرادت القيام، ثم انتقل اصطلاحا على العذاب، أو سببه(١).

فانتقل المعنى الاصطلاحي العام من مفردات منظومة المرض، إلى معنى دلالي خاص بأفراد الآيات السردية(٢)، ومنه قوله – تعالى –: "﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾"(٣)، وقوله – تعالى –: "﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾"(٤).

❁ "**زرق**": الزُّرْقة: اللون المعروف، وهو وصف للدلالة على الصفاء، فيقال للسماء زرقاء، لصفائها، وللماء، ويقال عن نفاذ الشيء واندفاعه(٥).

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (ر.ج.ز) (٣٢٣/١٠)، مقاييس اللغة لابن فارس (ر.ج.ز) (٤٨٩/٢)، الهداية لمكي (٦٧٧٣/١٠)، البسيط للواحدي (٥٦٥/٢)، المفردات للراغب (ص٣٤١)، المحرر لابن عطية (٤٠٥/٤)، نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٣١٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٠/١٦)، فتح الرحمن للعليمي (٩٥/٣)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٧٦٠/٢).

(٢) والقصد التدبري هنا: أن الرجز في أصله الاستعمالي اسم لداء، من آثاره أن المصاب به مضطرب قلق في حركته، وهذا المشهد التصويري مرتكز في الذهن الجمعي، فاستعمل القرآن الكريم هذا المصطلح انتقالا من منظومة المرض، إلى منظومة السرد العام له، فأصبح مصطلحا من الذاكرة الإنسانية لكل شيء وصف به، أضيف إلى وصفه وصف الحركة الترددية والاهتزاز العنيف، ففي العذاب يكون أشده وأغلظه، الذي يسبب الحيرة والثقل والتردد والعجز فوق كونه عذابا، وكذا في الزلزلة التي تصيب القرى الظالمة، تكون أعنف من الزلزلة المعتادة المعروفة، وكذا تزيين الشيطان وفعله، عندما يوصف بالرجزية، يكون التزيين والوسواس غير المعتاد، فيكون المقلق والمحير والمعجز والمثقل، وكذا الذنب عندما يوصف به.. إلخ، فاستفاد القرآن الكريم من مشهدية المصطلح الأم، لتصوير دلالته السردية المتنوعة.

(٣) الأعراف: الآية ١٣٤.

(٤) العنكبوت: الآية ٣٤.

(٥) ينظر: جامع البيان للطبري (١٦١/١٦)، معاني القرآن للزجاج (٣٧٦/٣)، بحر العلوم للسمرقندي (٤١٢/٢)، الوسيط للواحدي (٢٢١/٣)، المفردات للراغب (ص٣٧٩)، معالم التنزيل للبغوي (٢٩٤/٥)، لسان العرب لابن منظور (١٣٨/١٠)، التسهيل لابن جزي (١٤/٢)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٣٠٤/١٦)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٨٩٦/٢).

وقد استعمل المصطلح بدلالته الأم في معنى دلالي متحول، يعطى معنى المرض العضوي(١)، ومنه قوله ﷻ: "﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾"(٢).

﴿ "**سقم**": السقم هو: المرض، وخص هذا الاسم بالمرض البدني فقط دون النفسي، بخلاف المرض، فإنه يصدق على البدني والنفسي(٣)، وكذا يطلق اسم السقيم على المريض الذي تمكن منه المرض، ومنه قوله ﷻ: "﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾"(٤)، وقوله ﷻ: "﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾"(٥)(٦).

---

(١) والقصد التدبري هنا: أن النص الشريف استعمل مصطلحا عجيبا دقيقا يحمل كَمًا هائلا من الدلالات التي تسمح للعقل الجمعي بمجموعة من المشاهد فور سماعه، ليدل على مجموعة نمطية من الأمراض المعروفة، فوصف هؤلاء القوم بالزرقة، ليفيد من دلالة صفائه: عمى العيون لتكون كالصافية بلا سواد يبصر به، وهو العمى الذي يكون بلا سبب معين بخلاف البياض – كما مر –، وكذا وصفوا بالزرقة ليفيد من دلالة اللون على زرقة الجلد، خرجوا من قبورهم ميزوا بهذا اللون في جلودهم الذي يدل على القبح، لأنه يشبه لون الجلد إثر حريق، وكذا وصفوا بالزرقة ليفيد من دلالة الخفة والانزلاق على خفة العقل والسفه، بدلالة السياق التالي مباشرة، إلى غير ذلك من الدلالات المتنوعة التي يحملها هذا المصطلح البكر، فمن لفظة واحدة تسمعها الأسماع، تفهم وتتصور وتدرك حال هؤلاء من عمى وحريق وجنون، فحملت اللفظة أنواعا مرضية، لتتسع منظومة المرض دلالة واصطلاحا.

(٢) طه: الآية ١٠٢.

(٣) ينظر: الصحاح للجوهري (س.ق.م) (١٩٤٩/٥)، مقاييس اللغة لابن فارس (س.ق.م) (٨٤/٣)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٦٤/٤)، الهداية لمكي (٦١٦٦/٩)، المحكم والمحيط لابن سيده (س.ق.م) (٢٥١/٦)، المفردات للراغب (ص٤١٥)، الكشاف للزمخشري (٤٩/٤)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٠٣٧/٢).

(٤) الصافات: الآية ٨٩.

(٥) الصافات: الآية ١٤٥.

(٦) والقصد التدبري هنا: أن القرآن الكريم جعل لمنظومة المرض مصطلحات تصاعدية، فور سماع المصطلح، يقع بالذهن المقصد والمشهد، فإطلاق لفظة المرض تفيد عمومية لكل أنواع الأمراض، وعلى جميع المستويات، أما حرفية السقم "سقيم" فلا تطلق إلا على المريض الذي نال منه المرض واشتد به، حتى تركه ضعيفا هذيلا جافا، كأن المرض امتص قوته وبنيانه، ومن هذا وصف القرآن لحالة يونس ﷺ، بل اتسعت الدلالة الدقيقة التي استعملها القرآن الكريم على لسان إبراهيم ﷺ ليفر منه قومه ليروغ إلى بيت الأصنام، ليفعل ما يريده، كلمة دقيقة الوصف، معيارية تحليلية لحالته النفسية والجسدية والمجتمعية حينها، إذ لو قال فرضا "إني مريض" لما وقع بأسماعهم وقع السقم، فالسقم أشد من المرض، وأعنف، فضلا عن العدوى المحتملة .. إلخ من دلالات العرف المرضي.

- "**ضر**": الضر هو: الهزال وسوء الحال، ويطلق على كل ما هو ضد النفع، سواء في النفس أو المال أو البدن، والضرر: هو مطلق النقصان، ومنه الضرير: الذي به ضرر من ذهاب – نقصان – عينه(١).

وقد استعمل القرآن الكريم دلالة الضر في مواطنها السردية، جميعها تدل على مطلق النقصان، وسوء الحال، ومن رأسها ما دل على منظومة المرض، ومنه قوله – تعالى –: "﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾"(٢).

- "**غص**": الغصص هو: الشجا الذي يغص به في الحلق، أي: يعترض في الحلق، فلا يمر منه شيء ولا ينفذ، والغصة: ما يعرف بالاختناق وضيق التنفس، بسبب ابتلاع شيء ما سد منطقة الحلق(٣).

وجاء هذا المصطلح في الاستعمال القرآني وفق هذه الدلالة التي تفيد الاختناق التنفسي بسبب الطعام(٤)، ومنه قوله – تعالى –: "﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾"(٥).

- "**قرح**": القرح – بالفتح والضم – هو: الجرح، أو ألم الجرح، والقريح: الجريح، وقيل: المفتوح: الجراح، والمضموم: ألمها، وقيل: المفتوح: الأثر من الجراحة من شيءٍ يصيبه من خارج، والمضموم: أثرها من الداخل كالبثر(١).

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (ض.ر.ر) (٣١٤/١١)، مقاييس اللغة لابن فارس (ض.ر.ر) (٣٦٠/٣)، المفردات للراغب (ص٥٠٣)، أساس البلاغة للزمخشري (ض.ر.ر) (٥٧٩/١)، نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (ص٤٠٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٥٩/٥)، الجواهر الحسان للثعالبي (٩٣/٤)، الوجوه والنظائر للدمغاني (٢٤/٢).

(٢) الأنبياء: الآية ٨٣.

(٣) ينظر: جامع البيان للطبري (٢٨٤/٢٣)، مقاييس اللغة لابن فارس (غ.ص.ص) (٣٨٣/٤)، البسيط للواحدي (٣٧٣/٢٢)، المفردات للراغب (ص٦٠٧)، عمدة الحفاظ للسمين (١٦٤/٣)، فتح القدير للشوكاني (٣٨١/٥)، محاسن التأويل للقاسمي (٣٤٣/٩)

(٤) والقصد التدبري هنا: فيه ما فيه من وجوه العذاب والتهويل والألم، إذ استعمل النص الشريف مصطلحا مصطلحا تصويريا من منظومة المرض، له مضامينه العرفية والذهنية لدى المخاطب، وقرنه بالطعام الذي هو محل المتعة والهناء، والمعروف أن الغصة تكون بسبب الشره في الطعام، فتحول هو بذاته إلى غصة، فكأن كل لقمة هي في ذاتها طعام وغصة، فلا هناء ولا عافية ولا متعة ولا سبيل.

(٥) المزمل: الآية ١٣.

وقد استدعى القرآن الحكيم هذا المصطلح من منظومة المرض، ليدلل به على الحالة الجسدية والنفسية التي أصابت أهل أُحُد، فهو مصطلح يحمل دلالة مرض الجروح خاصة وألمها في نفس الحرف، ففور استدعائه للمشهد السردي يدرك المخاطب فحواه اللفظي والنفسي، وهذا ما أشار إليه قوله – تعالى –: "﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾"(٢).

﴿ "**كمه**": الكمه: العمى سواء كان من طمس ولد به ، أو ذهب بعد إبصار، أو ضعف بعد قوة(٣).

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المصطلح ليدل على حالة المرض العضوي الذي يصيب العين، سواء كان من أصل الخلقة، أو لعارض عبر الحياة، ومنه قوله – تعالى –: "﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾"(٤).

﴿ "**مس**": المس: المخالطة الدقيقة ذات الأثر، والمس: الجنون، سمي المجنون ممسوسا، كأنه خولط من طرف خفي دقيق وكان لهذه المخالطة أثر

=

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٤٧٠/١)، مقاييس اللغة لابن فارس (ق.ر.ح) (٨٢/٥)، الغريبين للهروي (١٥٢١/٥)، الوسيط للواحدي (٤٩٧/١)، المفردات للراغب (ص٦٦٥)، عمدة الحفاظ للسمين (٢٩٢/٣)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٨٩/٢)، فتح البيان لصديق خان (٣٣٩/٢)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٧٦٥/٤).

(٢) آل عمران: من الآية ١٤٠.

(٣) ينظر: العين للفراهيدي (ك.م.ه) (٣٨٣/٣)، مقاييس اللغة لابن فارس (ك.م.ه) (١٣٦/٥)، الهداية لمكي (١٠١٨/٢)، المفردات للراغب (٧٢٦)، معالم التنزيل للبغوي (٤٠/٢)، البحر المحيط لأبي حيان (١٤٥/٣)، عمدة الحفاظ للسمين (٤٣٢/٣)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٩/٢).

(٤) المائدة: من الآية ١١٠.

ظاهر، وصُدِق المس على كل ما ينال الإنسان من الأذى[١]، ومنه قوله ﷻ: "﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾"[٢].

ثانيا: مصطلحات الشفاء في الكتاب الحكيم بين الاستعمال والدلالة:

كذلك من خلال حصر مصطلح الشفاء في القرآن الكريم – استعمالا ومعنى – وعرضه على مائدة المعجمية التفسيرية، تبين تولد مجموعة من الألفاظ على معنى المصطلح، وبيان ذلك على المثالية لا الحصرية، وفق النحو التالي:

❖ "**برء**": البرأ هو: التباعد من الشيء ومزايلته، ومنه البرء وهو السلامة من السقم، يقال: برأت من المرض، أي: شفيت منه، وبعدت عنه[٣].

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المصطلح ضمن منظومة الشفاء، لأنه يحمل بين طياته الدلالية البعد عن الشيء والتبرأ منه، وإزالته، كأنه مفاصلة بين الشيئين، لا يلتقيان ولا عود، ومنه قوله ﷻ: "﴿ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِى﴾"[٤]، فليس شفاء وفقط، بل لا عود للمرض ثانية، كأنه ما كان.

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (م.س.س) (٢٧١/٥)،، البسيط للواحدي (٤٦٣/٤)، المفردات للراغب (ص٧٦٧)، الكشاف للزمخشري (٣٢٠/١)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٣٠٧١/٤).
والقصد التدبري هنا: عبر القرآن الكريم عن الجنون، أحد الأمراض المشهورة في تاريخ الإنسان، بهذا المصطلح، لأنه يحمل في طياته وجها دلاليا، من كون المجنون/ الممسوس قد أصابه هذا المرض جراء حالة خفية، أصابت قوة عقله، والتي هي قوة خفية، غير مرئية، إنما يظهر أثرها على تصرفات الإنسان، فناسب الاسم الوصف والسبب والتشخيص، وهذا من تفردات الكتاب الجليل.

(٢) البقرة: من الآية ٢٧٥. وبعد، فهذه أشهر ألفاظ المنظومة داخل القرآن الكريم، وإن كانت غيرها تحمل نفس الدلالة، كـ: حصر، صدع، عرج، نزف، وقر.. إلخ، لكن يكتفى بهذا القدر خشية الإطالة، مراعاة للورقة البحثية.

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (ب.ر.أ) (١٩٣/١٥)، مقاييس اللغة لابن فارس (ب.ر.أ) (٢٣٦/١)، المفردات للراغب (ص١٢١)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٣٩/١)، اللباب لابن عادل (٢٤٧/٥)، المعجم الاشتقاقي لجبل (٩٨/١).

(٤) المائدة: من الآية ١١٠.

- "**سلم**": السلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، ومنه الصحة والعافية، لأنها تعري من الأمراض، وأطلق على صحة الشيء والتئامه في ذاته(١).

وقد استدعى القرآن الكريم هذا المصطلح بمجموعته الدلالية، ليدل على السلامة من العيب والمرض الحسي والمعنوي، ومنه قوله ﷻ: "﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾"(٢)، وقولـــــه ﷻ: "﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾"(٣)، وقوله ﷻ: "﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾"(٤).

- "**عفـو**": العفو هو: المحو، ومنه: العافية، أي: محو أثر السقم الحسي، والبلية المعنوي، وأعفاه الله، أي: وهب له العافية من العلل والبلايا(٥).

وقد استدعى القرآن الكريم هذا المصطلح بدلالة معنى الترك، الذي هو أصل العافية، فكما أن العافية جعلت البدن سليما من العلل، كأنها تركته، كذلك السرديات القرآنية حملت معنى الترك، لتفيد معنى العفو المعنوي، كما الحسي، ومنه قوله ﷻ: "﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾"(٦).

- "**كشف**": الكشف: رفع الغطاء عن الشيء ليظهر ما تحته،(٧).

وقد استعمل القرآن الكريم هذا المصطلح عبر منظومة الشفاء، ليعطي من دلالته ما يخدم المنظومة الشفائية، فكأن الضر غطى عافية البدن، وجاء الشفاء كاشفا يرفع هذا الضر عن البدن أو النفس، ليعيد حالته إلى ما كانت عليه، ومنه قوله ﷻ: "﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾"(٨).

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (س.ل.م) (٩٠/٣)، الوسيط للواحدي (١٥٦/١)، المفردات للراغب (ص٤٢١)، عمدة الحفاظ للسمين (٢١٥/٢)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٠٦٣/٢).

(٢) البقرة: من الآية ٧١.

(٣) القلم: من الآية ٤٣.

(٤) الصافات: الآية ٨٤.

(٥) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (ع.و.ف) (٤١/٣)، الفروق اللغوية لأبي هلال (١١٨/١)، المفردات للراغب (ص٥٧٤)، لسان العرب لابن منظور (ع.ف.ا) (٧٣/١٥).

(٦) البقرة: من الآية ١٧٨.

(٧) ينظر: المحيط للصاحب (ك.ش.ف) (٢٦/٢)، مقاييس اللغة لابن فارس (ك.ش.ف) (١٨١/٥)، عمدة الحفاظ للسمين (٤٠٠/٣)، المعجم الاشتقاقي لجبل (١٨٩٦/٤).

(٨) الأنبياء: من الآية ٨٤.

رسم تشجيري لمنظومة المرض في القرآن الكريم بمصطلحاتها الأصيلة والرفيقة

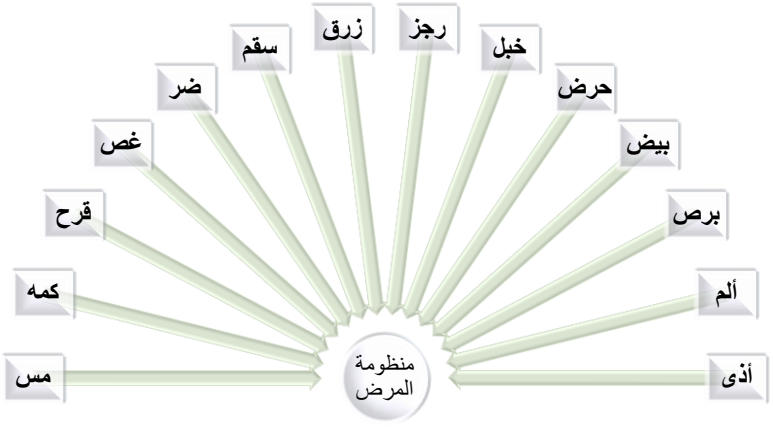

رسم تشجيري لمنظومة الشفاء في القرآن الكريم بمصطلحاتها الأصيلة والرفيقة

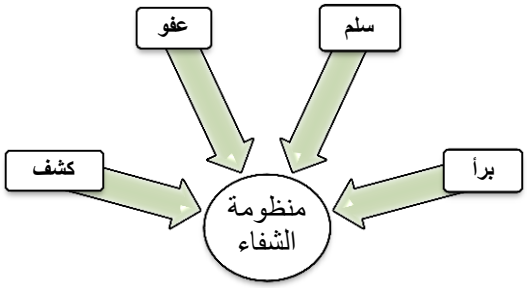

❁❁❁

ﷺ هيكلة إحصائية تكشيفية لثنائية المرض والشفاء في القرآن الكريم:

لما كان من طبيعة الورقة البحثية محاولة الدقة والتنعم في الفكرة المُعالجَة، لزمت تلك المحاولة الإحصائية/ التكشيفية لهذه الثنائية:

أولا: وردت مادة (م.ر.ض) بلفظها الأم في القرآن الكريم في ثلاث وعشرين آية[١]، جاءت عبر صيغ متنوعة، يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين[١]:

(١) ينظر: معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة (١٠٤١/٢)، المعجم المفهرس، عبد الباقي (ص٧٦٢)، =

١ـ مجموعة من الآيات تشير إلى المرض البدني، من خلال مصطلحي: المرض، والمرضى، جاءت في عشر آيات من القرآن الكريم.

السمات العامة لتلك المجموعة من الآيات الكريمات:

أحدها: جميعها تشير إلى المريض ذاته، دون النظر إلى المرض من أنواع، أو حيثيات.

ثانيها: جميعها نظرت إلى المريض نظرة العناية الإلهية، من تخفيف، وبر، وثواب.

٢ـ مجموعة من الآيات تشير إلى المرض القلبي/ النفسي/ الروحي/ العقدي/ الإيماني، من خلال مصطلح: المرض فقط، جاءت في ثلاث عشرة آية في القرآن الكريم.

السمات العامة لهذه المجموعة من الآيات الكريمات:

أحدها: جميعها أشارت إلى سبب المرض القلبي/ النفسي.. إلخ، كاشفة عن علة استجلابه، وتمكنه.

ثانيها: جميعها أشارت إلى موطن – مُستَقر – المرض، وهو القلب، سيد الجسد، ومحل الإيمان، ومحرر العزم والفعل.

ثالثها: جميعها أشارت إلى العقاب المرتقب حالة الاستمرارية على السبب، وتمكن المرض دون محالة العلاج والاستئصال.

ثانيا: وردت مادة (ش.ف.ى) في القرآن الكريم في ست آيات رئيسة[٢]، عبر صيغ متنوعة، بمجرد إطلالة سريعة عليها، يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين[٣]:

=

المعجم المفهرس لمعاني القرآن لمحمد الزين (ص١١٠٥)، المعجم المفهرس لعبد جلغوم (١٢٠٩/٢).

(١) محل بسطها المبحث الأول من هذه الورقة البحثية.

(٢) ينظر: معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة (٦٣٤/١)، المعجم المفهرس، عبد الباقي (ص٤٧٣)، المعجم المفهرس لمعاني القرآن لمحمد الزين (ص٦٣٧)، المعجم المفهرس لجلغوم (٦٦٨/١).

(٣) محل بسطها المبحث الثاني من هذه الورقة البحثية.

١. مجموعة من الآيات تشير إلى الشفاء المعنوي المتمثل في فرح الصدور ، وطهارة الباطن من الأمراض الإيمانية والأخلاقية.
٢. مجموعة تشير إلى الشفاء الحسي المتمثل في الشفاء من الأمراض والأسقام البدنية/ العضوية.

مخطط تكشيفي لمنظومة المرض والشفاء في القرآن الكريم

أولا: مصطلح المرض في القرآن الكريم:

اللفظة	الصيغة	عدد مرات الورود	السورة	مكية/ مدنية
مرضتُ	فعلية	مرة واحدة	الشعراء.	مكية.
مرض	اسمية نكرة	ثلاث عشرة مرة	البقرة/المائدة/الأنفال/التوبة/الحج /النور/الأحزاب/محمد/المدثر.	الكل مدنية إلا المدثر.
مريض	اسمية نكرة – معرفة	خمس مرات	البقرة/ النور/ الفتح.	مدنية.
مرضى	اسمية	خمس مرات	النساء/ المائدة/ التوبة.	مدنية.

ثانيا: مصطلح الشفاء في القرآن الكريم:

اللفظة	الصيغة	عدد مرات الورود	السورة	مكية/ مدنية
يشفي	فعلية	مرتان	التوبة/ الشعراء.	مدنية/ مكية.
شفاء	اسمية	أربع مرات	يونس/ النحل/ الإسراء/ فصلت.	مكية.

❁❁❁

بهذا المخطط التكشيفي، يتم تمهيد هذه الورقة البحثية، الذي عني بمدخل تصوري اصطلاحي لهذه الثنائية القرآنية، عبر معيارية الدرس الموضوعي، لتبدأ أولى الوقفات الموضوعية التكميلية مع هذه الثنائية، بدءا بمنظومة المرض في النص الحكيم.

❁❁❁❁❁

المبحث الأول: المرض في القرآن الكريم
بين البدني والقلبي .. (العضوي والروحي)

يبدو أنه من الضرورة التقديمية أن تكون البداية بمنظومة المرض – تصورا ومعالجة – فلا يكون شفاء إلا من مرض، ولا استدعاء عبر التاريخ لفكرة التطبب والاستشفاء إلا جراء استباحة المرض للبدن ومحاولة سكناه، فكان البدء بمنظومة المرض هو ما تقتضيه الطبيعة الإنسانية.

كذلك من لوازم تلك الضرورة التقديمية أن نشير إلى أن منظومة المرض في هذه الحياة، لا تخرج عن كونها إحدى منتجات الإنسان في نفسه، فالسبب الرئيس لحدوث المرض للإنسان هو الإنسان ذاته.

وإذا كان من المقرر شرعا وعقلا أن الله – تعالى – خالق العافية والمرض، وأن بيده ومنه كل شيء، إلا أن معطى القرآن الكريم يأخذ بأيدينا ناحية أن مشيئة الله – تعالى – تكمن في تأثير الأسباب والمؤثرات التي يُعَرِض الإنسان ذاته بنفسه إليها ولها.

وهذا من مصاديق قول الله ﷻ: "﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾"(١)، وقوله ﷻ: "﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾"(٢).

إذا كان هذا القدر السابق قدرا أغلبيا في مدونة التفسير(٣)، إلا أن قدرا آخر يستدعي – وبقوة – انتباه الناظر في معطيات النص الشريف، قدرا يكشف طبيعة ممارسة النص لمنظومة المرض في السرد الحكيم.

هذا القدر التنبيهي هو تلك المنظار القرآني الذي صُدرت من خلاله رؤية منظومة المرض للمخاطب بهذا النص الشريف.

---

(١) الشعراء: الآية ٨٠.

(٢) الشورى: الآية ٣٠.

(٣) ينظر مثالا لا حصرا: بحر العلوم للسمرقندي (٥٥٧/٢)، البسيط للواحدي (٦٩/١٧)، زاد المسير لابن الجوزي (٣٤٠/٣)، التفسير الكبير للرازي (٥١٢/٢٤)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١٠/١٣)، أنوار التنزيل للبيضاوي (١٤١/٤)، البحر المحيط لأبي حيان (١٦٦/٨)، السراج المنير للخطيب الشربيني (١٨/٣)، روح البيان لحقي (٢٨٤/٦)، روح المعاني للألوسي (٩٥/١٠).

صدرها من خلال رؤية ثنائية، تقابلية، تكاملية، أعجزت البيان عن إيفائها حقها البياني، بله السردي المُجاري.

وقد نيط بهذه الورقة البحثية محاولة المعايشة والإخراج لتلك الثنائية عبر سطورها، في محاولة استقراء للحقيبة المرضية في معطى النص ومدونته التفصيلية، فأول ما يبدأ به:

قسيم الثنائية الأول: "المرض البدني/ العضوي عبر الرؤية القرآنية":

ذاك القسيم استعمل من حقيبة الألفاظ اسم الجنس – جمعا ومحلى ونكرة – مرضى، المريض، مريض، جميعها في السياق الجسماني، جميعها في السياق التكليفي، جميعها بلا تعيين لمرض معين، أو مريض محدد، جميعها بلا حيثية الزمكانية، جميعها عنيت بإبراز شيء واحد فقط، هو العناية الإلهية من تخفيف وأجر وبر.

فأول ما تطالعنا هذه السردية المقدسة بورود المريض في أحكام الصيام بقوله – تعالى –: "﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾"(١)، وقوله – تعالى –: "﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾"(٢).

مريض بلا تعيين، بلا حيثية، بلا تعريف، بل مطلق المرض المعني بالسياق السردي للآيات الشريفات، أي: المريض الذي يشق عليه الصوم.

ولعل – من نفحات الكتاب الجليل – التعبير بالمريض دون المرض، ليشير إلى المكلف ذاته، دون التكليف، فربما مريض يشق عليه الصوم، وربما مريض لا يشق عليه، فالمناط على المكلف خاصة دون التكليف العام الذي يستوي فيه الجميع.

فأباح الله ﷻ الفطر للمريض وللمسافر – رخصة – بجامع المشقة في كلٍ، طلبا لحفظ القوة والعافية، فإن الصيام عينه ومداره على الامتناع عن

(١) البقرة: من الآية ١٨٤.

(٢) البقرة: من الآية ١٨٥.

الطعام والشراب، الذي هو عين التغذية وسبيل الصحة، والمريض الذي يضعف جسده بالمرض، وتخور قوته بسبب الضعف، وكذا المسافر الذي يتحرك ويشق السبل، متى اجتمع على أي منهما الامتناع عن الطعام والشراب، زاد الضعف وعلت العلة(١).

فكانت النعمة التكليفية برفع الحرج عن هذا الصنف، مراعاة للصحة، ورفعا للمشقة، وإبقاء على بذرة الحياة.

﴿ كذلك قوله – تعالى –: "﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ ﴾"(٢).

نسقية واحدة، وكرم عُلوي رفيع، بتخفيف التكليف عن المريض – دون النظر إلى نوعية المرض أو حيثياته – الذي يشق عليه إقامة الشعيرة على الوجه الأصيل، لحين استقامة حاله، وعود عافيته، وبرء جرحه، وكشف ضره، حينئذ تقام الشعائر والتكاليف حسب الشرع الحنيف، عزيمة ورخصة.

فمطلق المريض الذي يعنيه التكليف بالحلق كمدى من مديات الإحرام، والذي به أذى من رأسه، ألجأه إلى ضرورة الحلق، حينئذ يجوز – تخفيفا – أن يحلق في غير محله أو زمانه، مراعاة للمرض والأذى(٣).

﴿ ومنه قوله – تعالى –: "﴿ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا ﴾"، ومثله قوله – تعالى –: "﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ ﴾"(٤).

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي (٤٧٩/٤)، الوسيط للواحدي (٢٧٣/١)، زاد المسير لابن الجوزي (١٤١/١)، محاسن التأويل للقاسمي (٢٠/٢)، تفسير المراغي (٧١/٢).

(٢) البقرة: من الآية ١٩٦.

(٣) ينظر: الوجيز للواحدي (ص١٥٦)، محاسن التأويل للقاسمي (٦٣/٢)، تفسير المنار لرشيد رضا (١٧٨/٢)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١١٩/١)، زهرة التفاسير لأبي زهرة (٦٠٨/٢).

(٤) النساء: من الآية ٤٣، المائدة: من الآية ٦.

وعلى غرار التوجيه القرآني العام في سرده لمنظومة المرض البدني/ العضوي، أن الغرض هو المريض ذاته، دون التعرض لمعلومية المرض، وأن السياق هو الرفع الكلي أو التخفيف الجزئي مراعاة لحالته، وبريدا لعافيته.

فأباح التيمم الذي هو عليق فاقد الماء، لينزل المريض الذي يخاف الضرر، سواء بضرر محقق لعضو من أعضائه، أو تأخير شفاء عام، أو حتى يضعف عن الوصول إلى الماء – أنزله – منزلة فاقد الماء تماما، رحمة، ورخصة، واستشفاء[١].

وقفة تدبرية: هذه الثلاثية المقدسة[٢]، أسست لمنظومة طبية متكاملة – بشقيها المرضي والشفائي– فالثلاثة أشارت إلى أصول المرض، وأصول الشفاء.

المريض الذي يضره الصوم، المريض الذي يضره حبس الأذى بجسده، المريض الذي يؤذي نفسه بإطلاق.

جاءت آية الصوم تحفظ صحته، وآية الحج لإرشاده لاستفراغ المواد الفاسدة من جسده، وآية الوضوء لتعلمه الحماية عن كل مضر ومتلف.

في ثوب رحيم، وعناية جليلة، وتشريع رفيع، وإرشاد بليغ، جاءت هذه الثلاثة المقدسة، تخفيفا عن المكلف، تحمل في طياتها أصلا ركينا من أركان الحضارة وحقوق الإنسان وأصول الدواء في العصر الحاضر، وهو: مراعاة حال المرضى، بإعطائهم فترات النقاهة المناسبة[٣]، بله التخفيف المناسب من

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٣٧٤/١)، الوسيط للواحدي (٥٦/٢)، التفسير الكبير للرازي (٣٠٩/١١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٧٦/٢)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣١٣/٢)، جامع البيان للإيجي (٣٥٩/١)، الوسيط لطنطاوي (١٥٩/٣).

وغير خفي تلك الممارسة العملية الراقية عبر التشريع الشريف في واقعة عمرو بن العاص ﷺ الذي أصابته الجنابة في إحدى أسفاره الجهادية، وكان البرد شديدا، وتحقق لديه هلاك جسده إذا اغتسل حينئذ، فترك الغسل وتيمم، مخافة الضرر المحقق، فلما قدم على رسول الله ﷺ وعرف بما فعل، أقره ﷺ على ذلك. أخرجه البخاري في صحيحه (تعليقا) كتاب: التيمم، باب: إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت (٧٧/١). وهذا من مضامينه: أن فكرة تحقق الضرر العضوي – كليا أو جزئيا – تنزل منزلة المرض، فتكون الرخصة رفعا أو تخفيفا.

(٢) آية الصوم، وآية الحج، وآية الطهارة.

(٣) فالنصوص الثلاثة طلبت من المريض الاسترخاء التام فترة مرضه، ولا يشق على نفسه، ولا يعاند =

الأعمال المعاشية المنوطة بهم، فإذا كان الرب ﷻ أسس تشريعه على توفير هذا الأصل للمريض، فأولى بالإنسان أن يراعي هذا في مواثيقه ودنياه.

ﷺ وعلى هاتي السردية الشريفة، وهذا التشريع الجليل، جاءت كذلك رباعية قدسية ترفع الحرج كله، والضيق النفسي دقه وجله، بدءا بقوله – تعالى –: "﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾"(١). وقوله – تعالى–: "﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾"(٢). وقوله – تعالى –: "﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾"(٣). وقوله – تعالى –: "﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾"(٤).

أيها المريض الذي أصابه الداء – بلا تدقيق في مرضه، أو تفصيل في علته – ويأيها الزمني الذي أصابه البلاء، لا تضيق نفسك، ولا يتحرج فؤادك، لا تحمل كمدا بين طيات قلبك، ولا يضطرب من مجتمعك جفنك، فلا حرج عليك من ربك، ولا تكليف عليك في دينك.

وحقيقة تطرق الدرس الأثري والنظري إلى سببية النزول، وتعددية المصاديق، والتي يرجع جميعها إلى أن أصحاب العذر البلائي – زمني أو مرضى – معذورون أمام ربهم، فلا يساء بهم الظن في مجتمعهم، ولا ينظر إليهم نظرة لا تليق بهم، تحرج مشاعرهم، أو تضيق عليهم نفوسهم، وهم أيضا

=

الرخصة، ريثما تتم عافيته، ثم يعود إلى العزيمة، فالتشريع للإنسان، لا عليه، وهذا ما أفادته كلمة "أخر"، فالتعافي، ثم النقاهة، ثم القدرة الطبيعية، ثم قضاء العبادة.

(١) التوبة: من الآية ٩١.

(٢) النور: من الآية ٦١.

(٣) الفتح: من الآية ١٧.

(٤) المزمل: من الآية ٢٠.

لا يتحرجون من أنفسهم أمام أنفسهم والآخرين، بل يخالطون بما استطاعوا، ويمارسون عبادتهم بما قدروا(١).

تلك الآيات التي تناولت المرض البدني، والتي تحدثت عن المرض من حيثية المريض ذاته في كل مواطنها، وإن اختلفت السياقات باختلاف التناول والمناسبة.

لأول نظرة تلاحظ حديثها عن المريض ذاته، دون مرضه، في قالب رحيم ودود، حمل الرحمة الإلهية به رخصة وتخفيفا، والإرشاد التربوي إليه رعاية وبرا.

وهذا ما ينبغي أن توجه إليه النظرة المجتمعية، في استنطاق كتاب الله ﷻ لتأسيس الطب النفسي، والتكامل المجتمعي الذي أظهره في السواد، لا في الأفراد.

❁❁❁

وخشية الخلل بشرطية الورقة البحثية، من الاختصار دون الإطالة، والإشارة دون العبارة، نكتفي بما ذُكر لنعرج إلى:

قسيم الثنائية الثاني: "المرض القلبي/ الروحي عبر الرؤية القرآنية":

ذاك القسيم استعمل من حقيبة الألفاظ، اللفظ الأم "مرض"، ومن الآيات سياق واحد، وسرديات متعددة، ومناسبات متداخلة، تشير جميعها إلى المرض القلبي.

لأول نظرة تلاحظ حديثها عن مرض الإنسان المعنوي، في قالب تمثيلي بديع، لإنزال المعنوي الروحي، منزلة المحسوس العضوي، ضمن طائفة وصفية بيانية زخر بها القرآن الكريم، تستدعي الانتباه والتدبر.

فما سيق من أوصاف لهذه القلوب وما تحويه، هو جنس مرضي، أصاب القلب، فخرج به عن حد السلامة والعافية.

(١) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي (٥٢٤/٢)، الهداية لمكي (٥١٥٣/٨)، لطائف الإشارات للقشيري (٦٢٢/٢)، المحرر الوجيز لابن عطية (١٩٥/٤)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٩٥/٦)، البحر المديد لابن عجيبة (٣٩٤/٥)، التفسير المنير للزحيلي (١٧٤/٢٦).

قلوب مريضة، وأصحابها – **في قلوبهم مرض** – منذ بدايات العهد المكي[1]، واستمرت هذه القلوب بأمراضها حتى نهايات الفترة النبوية المشرفة، على أعتاب تبوك، بل ورّثت مرضها عبر الأجيال في كل من تسربل بسبب إلى هذه الأمراض.

فأول ما تطالعنا به هذه السردية القرآنية **بالمرض الرئيس للقلب وهو مرض الشبهات**.

سردية متكاملة، رغم اختلاف السياقات والمناسبات، إلا أن القاسم المشترك، والقطب الموحد، هو الشبهة التي تملكت هذه القلوب، ففسدت وفسد أصحابها.

قلوب مختوم عليها، مطبوع عليها، تشابهت في الضلال، بها زيغ، أشربت الشرك، تسكنها الحسرة، خربة من الإيمان، لم تؤمن، لم تخشع، عامرة بالسوء والقسوة والغل والكبر، ارتابت، لاهية، زاغت عن البصيرة والتعقل والاطمئنان.. إلخ من المعاني السلبية التي وصفت بها قلوب الطوائف نقيض المؤمنين.

ورغم هذه الشبهات المتجذرة في قلوبهم وأوردتهم، حتى صارت الغذاء لأجسادهم، فصاروا ميكروبا يمشي على الأرض، مرضا يتفاقم ويعدي الأصحاء – رغم هذا – إلا أن الكتاب الحكيم أشار أيضا إلى مرحلة النجاة والسلامة والعافية.

إحدى عشر آية، أظهرت، وأصلت مرض الشبهة، موطنه، مظاهره، بله طرق النجاة منه[2]، والسطور التالية اختصار عبارة، وومضة إشارة إلى معالم هذا المرض، والنجاة منه:

بدأت السردية بقوله – تعالى –: "﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾"[1]، وختمت بقوله – تعالى –: "﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ ﴾"[2].

(١) كما أشير إلى هذا في الهيكلة الحصرية في التمهيد.

(٢) هذه الآيات بدأت بالبقرة، وانتهت بالمدثر، سياق لوصف الوعاء المريض (القلب) وأثره التابع.

المرض القلبي نوع فساد مخصوص يصيب القلب، فيفسد، فتفسد به الأعضاء والتصورات والإرادات والمآلات، نوع يحصل بسبب ميكروب – إن صح التعبير –الشبهات والشهوات، كما تفسد الأعضاء بسبب الميكروب الفيروسي، فلا يرى حقا، ولا ينكر منكرا، وعلى النقيض تكون صحته أن يكون عارفا للحق، رافضا للشك، مستقبلا للنور (٣).

⇦ **مصاديق المرض القلبي في القرآن الكريم:**

إحدى عشر سردية أشارت إلى الذين في قلوبهم مرض دون تعيينهم، ومن ثم تعددت الأقوال في الدرس التفسيري في مصاديق هؤلاء، ورغم تعددها، إلا أن المتدبر يراها متعانقة، متلاحمة – **لذا أسميتها مصاديق** – تشير جميعها إلى صنف من الناس أصابت قلبه شبهة، استجلبها على نفسه، فتمكنت منه، ففسد قلبه وروحه، ومن ثم أثره ومآله.

وباستقراء كتب التفسير، يمكن حصر أقوال الدرس التفسيري التحليلي في المصاديق التالية:

١. المنافقون.

٢. الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد.

٣. فتية من قريش أسلموا بمكة وما قوي إسلامهم ولم يهاجروا.

٤. الذين في قلوبهم جهل وعداوة وحقد.

٥. الذين لم يشهدوا بدرا.

=

(١) البقرة: الآية ١٠.

(٢) المدثر: الآية ٣١.

(٣) وهذا من مصاديق قول النبي ﷺ: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه". أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، (١٢٨/١)، ح رقم ١٤٤. وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٩٢/١)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩٧/١)، إيجاز البيان للنيسابوري (٣٩٥/١)، نظم الدرر للبقاعي (٥٢/٩).

٦. عامة أهل الكفر.
٧. أهل الشك والريبة.
٨. أصحاب الفواحش والفجور.
٩. المتردد في قبول الإيمان(١).

⇦ **مظاهر المرض القلبي في القرآن الكريم:**

لكل مرض مظاهر تطرأ على المريض، تظهر آثار علته، ومدى قوتها، وخبثها، ونوع إنذار لسرعة الاستشفاء منها.

والقلب كالبدن تماما، متى أصابه المرض، ظهرت علامات على أفعال المريض وإراداته، وآثاره في الدين والحياة، تُعْلم الناظر مدى خبث مرضه، درجة تحكمه، وأظهر هذه المظاهر التي استنطقها النص الشريف عن علة القلب هي:

١. ازدواجية الظاهر والتلون:

يقول ﷻ: "﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾"(٢).

---

(١) ينظر حصيلة هذه الأقوال في: تفسير الصنعاني (٢٦٠/٢، ١٢٣/٣)، جامع البيان للطبري (١٧٦/١، ٣٧٦/٦، ٢٩/١٠، ٩٧/١١، ٢٤٨/١٧، ٢٠٨/١٨، ١٦٠/٢١، ٤/٢٢، ٧١/٢٦)، الكشف والبيان للثعلبي (١٥٤/١، ١٧٦/٤، ١١٣/٥، ٣٥/٩، ٧٤/١٠)، معالم التنزيل للبغوي (٥٠/١، ٥٢/٢، ١٨٥/٤)، زاد المسير لابن الجوزي (٢٤/١، ٢٨٩/٢، ٢٥٠/٣، ٣٠٣/٥، ١٨٥/٦، ١٥٢/٧، ١٢٧/٨)، التفسير الكبير للرازي (١٢٢/٢، ١٢٣/١٠، ١٤١/١٥، ٢٣١/١٦، ١٩/٢٤، ٦٠/٢٨، ١٨٢/٣٠)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩٧/١، ٢١٧/٦، ٢٧/٨، ٨٦/١٢، ١٤٧/١٤، ٢٤٣/١٦، ٨٢/١٩)، البحر المحيط لأبي حيان (٩٢/٣، ٥٠١/٤، ١١٩/٥، ٢١٢/٧، ٨١/٨)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥١/١، ٧١/٢، ٢٤١/٣، ١٩٤/٤)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٤٨/٣، ١١٣/٤، ٩٨/٨)، روح المعاني للألوسي (١٤٨/١، ١٦/١٠، ٥٠/١١، ١٧٤/١٧، ١٩٦/١٨)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٢٧٥/١، ١٣١/٥، ١٢٩/٩، ٢٣٣/١٠، ٢١٨/١٧، ٢٤١/٢١، ٢٩٤/٢٩). والحقيقة التدبرية: أن هذه الأقوال كلها مصاديق على الذين في قلوبهم مرض، كلها متعانقة متلاحمة، تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى إنتاج قلب مريض، فبعض هذه المصاديق إثر بعض، بعضها يسلم إلى الآخر، فمتى استجلب الإنسان على نفسه بداية الإصابة المرضية بفكرة التردد، انتهى لا محالة إلى قمة الإصابة بالنفاق الأكبر والكفر، عياذا بالله تعالى.

(٢) البقرة: الآية ١٠.

الإسلام عبر الزمان والمكان ابتلي بصنف من الناس لم يملك القابلية اللازمة للإيمان والتصديق، ولا القدرة التامة للمعارضة والمواجهة.

فما كان من هذا الصنف إلا أنه أنتج بحاضنته أخبث الأمراض المجتمعية، التي تهدم أي حضارة، فضلا عن الأشخاص والجماعات، وأس الجراثيم القلبية التي تفتك بأي عضو، ألا هو مرض النفاق.

وما بد من القرآن الكريم حينئذ أن يكشف عن هذا المرض وخصائصه وآثاره، ليعطي حزمة معيارية، ودراسة بينية عن هذا المرض ومريضه.

النفاق مرض حقيقي، وانحراف عن الطريق، فالإنسان الصحيح له وجه واحد، في ظاهره وباطنه، انسجام تكاملي، روح وبدن، قلب وأعضاء.

أما إذا كان متظاهرا بما لا يحوي، فإن ذلك هو المرض بحده وحديده، فالبدن يستبطن المرض، وإن كان في ظاهره السلامة، حتى يستشري ويفسد.

والنتيجة الملاحظة معنا دائما على طول الخط، هي سماح المريض لتمكن المرض من قلبه، واستفحاله على عمله وحاله، فتكون النتيجة أن يتركه الله تعالى لنفسه، ليزداد مرضا إلى مرضه.

ومعنى "فزادهم الله مرضا" أن تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الأيام، لأن من شأن الأخلاق إذا تمكنت أن تتزايد بتزايد الأيام حتى تصير ملكات[1].

وبما أن الكذب هو الأداة الأولى لدى المنافقين، إذ هو المعول الفعَّال لتبرير كل متناقضتهم – بما أنه كذلك – ختم الله ﷻ هذا النص الشريف بحتمية عاقبتهم لهذا التعليل "﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾".

ثم توالت الآيات الكريمات سردا لخصائصهم، ونواتج علتهم بما يظهر حال هذا المرض ومريضه، فلا تبقى شائبة، ولا تغيب غائبة.

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج (٨٦/١)، الهداية لمكي (١٥٣/١)، الوسيط للواحدي (٨٧/١)، معالم التنزيل للبغوي (٨٨/١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٤٥/١)، البحر المحيط لأبي حيان (٨٦/١)، فتح الرحمن للعليمي (٥٩/١)، فتح القدير للشوكاني (٤٩/١)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٢٧٩/١)، زهرة التفاسير لأبي زهرة (١٢٥/١).

٢. **سرعة موالاة العدو في السراء والضراء:**

يقول الله – تعالى –: "﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾"(١).

نهي قرآني شديد اللهجة بسمع الزمان عن موالاة(٢) أعداء دينك، باتخاذهم نصرة وخلطة ومعاضدة، فإن هذا عين الظلم، وأي مسلم يخالف هذا النهي القرآني بإقامة التقارب الوثيق بينه وبينهم، فإنه سيصبح من حيث التقسيم كأنه منهم، وهذا مصداق قوله – تعالى –: "﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾"(٣).

وبدهي أن الله ﷻ رفع هدايته عن الظالمين الذين يخونون إخوانهم، ويقدمون أعدائهم على بني جلدتهم ودينهم، بيانه قوله ﷻ: "﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾"(٤).

بيد أنه فريق أصابه المرض القلبي، فتسلل إلى فهمه وفعله بله دينه، فبسبب هذه العلة المرضية(٥) سارع هذا الفريق في اقتراف هذا النهي، وموالاة العدو، بدعوى الخوف من دوائر الزمن، ومصائب المجتمعات، ولربما دارت الدائرة فكانت الغلبة لهم، والدولة بأيديهم فنحتاج إلى دعمهم ونصرتهم، والعيش في كنفهم.

فرد الله ﷻ هذا الفكر المريض الذي يسيئ الظن بالله ﷻ والذي يدل على تمكن هذا المرض الشكّي من قلوبهم، وإلا لما سكنت هذه الأفكار نفوسهم وممارستهم.

رد الله – تعالى – شبهتهم المرضية بنفس الحجة التي انطلقوا منها، فاحتمالية نصرة العدو، يقابلها احتمال نصرة المسلمين، بله ما تفيده "عسى" الإلهية الوعدية بالفتح من الله – تعالى – لدينه وعباده، سواء بالنصرة العسكرية

(١) المائدة: من الآية ٥٢.
(٢) وليس القصد النهي عن مطلق العلاقات، كالتجارية والاجتماعية والمعاشية، كما لا يخفى.
(٣) المائدة: من الآية ٥١.
(٤) المائدة: من الآية ٥١.
(٥) والمرض الذي يناسب المقام هنا من مصاديقه المتعددة: النفاق والشك.

أو الاجتماعية أو الاقتصادية، ويكون حينئذ مصير هؤلاء المرضى الخسران الدنيوي بالذلة والندامة، والخسران الأخروي بحبط الأعمال والمآلة[١].

٣. <u>ممارسة الإحباط والتثبيط والاستهزاء لـ وبالمؤمنين</u>:

يقول الله – تعالى –: "﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾"[٢].

تجسيد قرآني آخر لعرَض ومظهر آخر من مظاهر المرض القلبي عندما يتمكن من الإنسان، وهو ممارسة السخرية والتثبيط والإحباط لجماعة المؤمنين في وقت الشدة والعسرة، مما ينتج – بسعيهم وظنهم – هزيمة المسلم داخليا/ معنويا، ليترتب عليها هزيمته الخارجية/ الحسية.

فالذين في قلوبهم مرض[٣] – سواء من نبتة المنافقين، أو ممن لم يتمكن الإسلام بعدُ في قلوبهم – على عتبة الجادة والتشمير، يرتابون ويترددون، وليس هذا فقط، بل يمارسون هذا على الجماعة المسلمة، فقالوا: "﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾"، يسندون الإيهام بالمنفعة المترتب عليه المضرة – يسندون – إلى الدين الحق، والوعد الصدق.

فرد الله ﷻ شبهة مرضهم، وخبث نفوسهم أن العبرة ليست بالقلة أو الكثرة، إنما حسن تسليم القلب والجوارح لله رب الدين الحق والوعد الصدق، به تحصل النصرة، وتثبت الولاية[٤].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٢٠٣/٢)، زاد المسير لابن الجوزي (٥٥٨/١)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٤٨/٣)، فتح القدير للشوكاني (٥٧/٢)، فتح البيان للقنوجي (٤٤٩/٣)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٢٢٩/٦)، زهرة التفاسير لأبي زهرة (٢٢٤٣/٥).

(٢) الأنفال: الآية ٤٩.

(٣) والمرض الذي يناسب المقام هنا: التردد والريب.

(٤) ينظر: بحر العلوم للسمرقندي (٢٦/٢)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٨٢/٢)، الهداية لمكي (٢٨٤٥/٤)، الوسيط للواحدي (٤٦٦/٢)، الكشاف للزمخشري (٢٢٨/٢)، اللباب لابن عادل (٥٤٠/٩)، محاسن التأويل للقاسمي (٣٠٨/٥)، تفسير المراغي (١٤/١٠).

٤. <u>غلف القلب وفساد العقل:</u>

يقـــول الله ﷻ: "﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾"(١).

مظهر معياري يبرز السمة الفارقة حقا بين القلب السليم والقلب المريض، أبرزها القرآن الكريم في هذه السردية الشريفة، هذا المظهر هو طبيعة الأرضية المستقبِلة لنور السماء الشريف.

فإذا ما أنزلت سورة برز مرضى القلوب(٢) بصدأ قلوبهم وفساد عقولهم، يرفضون أنوار القرآن الكريم، فليست العبرة وحدها في القانون السماوي الذي تحتويه السورة القرآنية، إنما العبرة كذلك في الجهاز الاستقبالي لهذا القانون، فالقلب السليم يزداد إيمانا، والقلب المريض يزداد مرضا وخبثا ونجسا.

والمشهد التدبري لترتيب السردية: مرض فرجس فكفر، ذلك أن نبتة الفتنة والجهل والعناد تمكنت من قلوبهم حتى غلفت قلوبهم، وأغلق كل طريق إلى هدايتها، ثم استشرى المرض ليشمل قبة الأعضاء وهو العقل، فلا يذكرون ولا يفقهون، فطبع الرجس على القلب والفكر والعقل والفعل، فكانت النتيجة المرتقبة والمتوقعة "﴿ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾"(٣).

٥. <u>الاستجابة لما يلقي الشيطان:</u>

يقول الله – تعالى –: "﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾"(٤).

مؤامرات(٥) تترا بقدم الزمان والمكان، دأب كبراؤها من الشياطين وأعداء الدين على إلقائها وحياكتها أمام وضد الأنبياء والصالحين.

---

(١) التوبة: من الآية ١٢٥.

(٢) والمرض الذي يناسب المقام هنا: الجهل والعنت.

(٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي (١٣٧/١٤)، النكت والعيون للماوردي (٤١٦/٢)، البسيط للواحدي (٩٩/١١)، معالم التنزيل للبغوي (٦٦/١)، التفسير الكبير للرازي (١٧٤/١٦)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٣٩/٤)، نظم الدرر للبقاعي (٥٢/٩)، الوسيط لطنطاوي (٤٣٠/٦).

(٤) الحج: الآية ٥٣.

(٥) ليست هذه الورقة البحثية محط مناقشة تمني الأنبياء ولا إلقاء الشيطان فيها، فهذا بسطه في مظان أخرى، تنظر في مراجع مناقشة النص الشريف موضوعيا.

والله – تعالى – من وراء كل هذا عليم حكيم، إلا أن هذه المؤامرات تحمل في طياتها التشكيل الامتحاني للجماعة المؤمنة، ومن خلفهم مرضى القلوب[١] من قلقي الإيمان، ومعهم كذا متحجري القلوب الذين قست قلوبهم على العداء للدين وأهله.

فالفريق المؤمن يعلم أنه الحق فيزداد إيمانا، والفريق الآخر يتردد في مرضه الذي استجلبه على قلبه من إستجابة الوسواس، والانصياع لفكره، وملازمة طريقه، ومن ثَمَّ تقليد واتباع أهل الشر، وتسليم أنفسهم لهم، ولم يسلموها لله ﷻ حتى يتمكن المرض، ليتحول إلى المرحلة التالية وهي قسوة القلب، ليتحجر على مرضه، ثم المرحلة التالية الحتمية أنه من الظالمين البعيدين كل البعد عن الحق وأهله[٢].

٦. <u>الإعراض عن قبول التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ:</u>

يقول الله – تعالى –: "﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾"[٣].

سياق شريف يأخذ المخاطب مرحلة إثر مرحلة، فبعد السردية الإيمانية والتوحيدية بدلائلها، يأتي أثر ذاك النور وتلك التوحيد في فعل الإنسان وانعكاسه على تصرفه وحاله حقا وحقيقة.

وكعادة المتلقي إزاء الشرع المقدس، ينقسم الحال إلى سليم صحيح يتلقى النور، ويستضيء به، وينبت أثره على فعله وحاله.

وآخر مريض لا يتجاوز النور حدود الألسن، ولا أثر له في العمل، صفة مرضه، ونعت ضرره، وجذور علته أنه لا يسلّم إزاء تحكيم كتاب الله – تعالى – وسنة نبيه ﷺ فانحرف قلبه جراء مرضه[٤] الذي سكنه حتى تمكن وسيطر،

(١) والمرض الذي يناسب المقام هنا: الشبهة والتشكيك.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١٢٧/٤)، زاد المسير لابن الجوزي (٢٤٦/٣)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٧٦/٤)، فتح الرحمن للعليمي (٤٤١/٤)، روح المعاني للألوسي (١٧١/٩)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٣٠٢/١٧)، زهرة التفاسير لأبي زهرة (٥٠٠٦/٩).

(٣) النور: من الآية ٥٠.

(٤) والمرض الذي يناسب المقام هنا: الشك والنفاق.

لتكون النتيجة التالية "﴿ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ ﴾"، وطبعي من تردد في عقيدته لن يسلم قلبه أبدا.

شأن عجيب، استدعى سياقا ملفتا للنظر والعقل بمجموعة من الاستفهامات للتنبيه على هذا المرض الخبيث الخفي الذي كانوا يظهرون خلافه.

فبدأ السردية الاستفهامية بالجملة الإسمية، للدلالة على ثبات هذا المرض في قلوبهم، واستشرائه في أفعالهم وسلوكهم، بحيث جعل قلوبهم وأبدانهم محلا لأثره.

ثم ثنى بالفعلية التي تفيد لفتة تصويرية عميقة للمشهد المرض ومدى استفحاله، حيث الحدوث والتجدد لأثر المرض الأعظم، وهو الريب الملازم لهم، إثر الاعتقاد المتردد، والظلم البيّن.

إثبات، فتعجب، فاستنكار، ثم الختام الدائم لمرضى القلوب الذين سمحوا بتمكنه وتحكمه، أنهم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم، ولدينهم، ولكتاب ربهم، ولسنة نبيه ﷺ[1].

٧. <u>التكذيب العام</u>:

يقول ﷻ: "﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾"[2].

وما أدراك ما الامتحان في هذه الحياة، هو القيامة الصغرى، تظهر فيه الأسرار، تخور القوى، تضعف النفوس، ولا نجاة حينئذ ولا رسوب إلا بما قدمه الإنسان.

تلك ما تصوره هذه السردية المقدسة التي تظهر مظهرا جديدا من مظاهر مرضى القلوب، حين فار التنور، وابتلي الجميع بهذا الاختبار العسير

(١) ينظر: معالم التنزيل للبغوي (٥٦/٦)، التفسير الكبير للرازي (٤١٠/٢٤)، اللباب لابن عادل (٤٢٨/١٤)، السراج المنير للشربيني (٦٣٣/٢)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٨٧/٦)، فتح القدير للشوكاني (٥٢/٤)، محاسن التأويل للقاسمي (٤٠١/٧)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٢٧١/١٨).

(٢) الأحزاب: الآية ١٢.

– يوم الأحزاب – والمشهد التصويري أن الناس في ظاهرهم صف واحد، إلا أن القلوب لها حديث آخر، وصدى مختلف.

فمؤمن حقيقي أخلص لله ولرسوله ﷺ، وآخر ضعيف الإيمان خائر، وثالث منافق عنيد مثبط كاذب، ورابع بين بين، تارة هنا وتارة هناك، وخامس وسادس... إلخ.

كل قد فضح الامتحان مرضه[1] وعلته، وعلى عتباته أظهر أثر مرضه على أفعاله وأقواله، فبدأوا بتكذيب وعد الله – تعالى – لرسوله ﷺ وللمؤمنين، وقالوا: "﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾".

والغرور: إظهار المكروه في صورة المحبوب، كأنهم يريدون إظهار أن وعد الله ﷻ بالنصرة ما كان إلا تغريرا، لأنه في واقعه هزيمة، وهذا من فرط مرضهم، وخوفهم، وعيشهم على المحك دائما، جعلهم ينظرون إلى الأمور نظرة مريضة، فاسدة من فساد قلوبهم وعقولهم، تماما كالمريض لا يحسن تذوقا ولا شما ولا قوة.

وما أدركوا برهة من زمن ولا مسكة من عقل – بسبب مرضهم المستشري – أن نظرة الرسول ﷺ حينئذ الملكوتية، كانت قادرة على رؤية المستقبل وبشاريته، وشم رائحة النصرة الإلهية عبر الأيام والمكان.

سلسلة طبعية لأي مريض سمح للمرض بالتمكن والتمكين، بدءا بالبذرة من شك وخوف واتباع للمنافقين، ثم المرحلة التالية من تفحله، تكذيب، وتعويق، وتثبيط، وفتنة، وخيانة للعهد، وجبن، ويأس، وغيبة وألسنة حداد، ثم النهاية بتجنب الساحة مطلقا، والفرار رعبا، والختم على قلوبهم بما حوت من مرض ونفاق[2].

وهذا عين قوله – تعالى –: "﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ... إلى قوله: يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ

(١) والمرض المناسب للمقام هنا: الشك والخوف.

(٢) ينظر: الهداية لمكي (٧٠٥/١)، الوسيط للواحدي (٤٦٢/٣)، مدارك التنزيل للنسفي (٢١/٣)، الجواهر الحسان للثعالبي (٣٣٩/٤)، روح البيان لحقي (١٥٠/٧)، فتح البيان لصديق حسن خان (٥٧/١١)، محاسن التأويل للقاسمي (٥٤/٨)، تفسير المراغي (١٤١/٢١).

يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾"(١).

٨. <u>نشر الأذى والإشاعات:</u>

يقول الله – تعالى –: "﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾"(٢).

أثر آخر، ومظهر جلي لمرضى القلب، أظهره هذا السياق الشريف، تأكيدا على أحد موارد الأباطيل والأذى التي يتحينها أولئك المرضى وأسيادهم.

ولأجل النجاة من هذا الذَنَب الخبيث، ومظهره المقلق، بدأت السردية بتلك النداء الإلهي للمؤمنات أن لا يدعن فرصة يهتبلها هؤلاء الفسدة والمرضى لتحقيق أذاهم، ونشر الإشاعات والأباطيل، فقال – تعالى –: "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾"(٣).

ثم اتجهت الآية الجليلة تهديدا ووعيدا لهؤلاء الخبثة المرضى، أذناب المنافقين وأتباع المرجفين، نهيا عن هذا المرض(٤) وآثاره، لغلق أساليب هؤلاء الأوباش، ودحض حجج أولئك الأراذل.

والإرجاف هو الاضطراب والتزلزل، ويطلق على إشاعة الأخبار السيئة، لما فيها من إحداث اضطرابا عاما في المجتمعات.

فئات تمحورت في كل زمان وكل مجتمع، مشتغلة بالأذى الحسي والمعنوي، وتلمسوا لهذا كل وسيلة خبيثة.

<u>فأولهم</u> المنافقون الذين هم الرأس، وهدفهم الدين ذاته وهدم أصله وجذره، <u>وثانيهم</u> الأتباع الأراذل، الذين عرضوا قلوبهم لبذرة المرض، حملة الجرثومة،

---

(١) الأحزاب: الآيات ١٢ – ٢٠.

(٢) الأحزاب: من الآية ٦٠.

(٣) الأحزاب: الآية ٥٩. وبدهي أن هذه الورقة البحثية ليست محلا لبسط الدرس التفسيري في معنى الإدناء والجلباب، وما تحويه الآية الكريمات من إشارات تشريعية، فهذا مظانه المدونة، إنما القصد هنا الربط السردي لفكرة النسق الذي يكتنف مرض القلب ومظاهره.

(٤) والمرض المناسب للمقام هنا: الغل والفجور.

البيئة الحاضنة، معمل التوريث، والجسر الناقل للعدوى المجتمعية، هم الذين مرضوا، ونقلوا المرض الفعَّال في الفئة التالية، وثالثهم المرجفون في المدينة – وكل مدينة – الأثر المنتج، واليد الفاعلة.

صفة إثر صفة، تتوسطها المرحلة المرضية، ليدلل الكتاب الجليل على خطورة هذه المرحلة، وأنها الأوحد لانتقال المرض من جذوره الساكنة إلى بيئته الفاعلة(١).

٩. الجبن والفساد الداخلي والخارجي:

يقول الله – تعالى –: "﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾"(٢) إلى قوله – تعالى –: "﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾"(٣).

خَوَر وجبن، هلع واضطراب، عقول تتوقف، عيون تتسمر، كأنها ترى الموت.

تلك بعض الأعراض المرضية التي تظهر على مريض القلب تجاه التكليف الإلهي، سيما الأوامر والنواهي، كالجهاد وما في صفه من تكاليف.

فكل ميدان تكليفي هو ميدان اختبار من الله – تعالى – فالقلب السليم/ الصحيح تتفجر استعداداته وقابلياته، يثبت ويجتهد، عشقا وطاعة.

والقلب المريض خائر خاسر، يرى التكاليف ميدان موت، ومفارقة للذائذ الحياة، فلا يقوم لها – إن قام – إلا بكسل وانهزام.

وما النتيجة الحتمية لهذا القلب؟ "﴿ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾" وعيد بالخسران والموت، فكما فررت من التكليف بحال الذي أوشك على الموت، كان عقابك بمثل ما تمثلت به.

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري (١٨٣/١٩)، النكت والعيون للماوردي (٤٢٤/٤)، الكشاف للزمخشري (٥٦١/٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٥/١٤)، التسهيل لابن جزي (١٥٩/٢)، السراج المنير للشربيني (٢٧٢/٣)، تفسير المراغي (٣٨/٢٢)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٠٨/٢٢).

(٢) محمد: الآية ٢٠.

(٣) محمد: الآية ٢٩.

والجليل في تلك السردية الشريفة أنها أشارت إلى أسباب هذا المرض[1] العضال، مرض القلب تجاه التكليف الإلهي، فما استشرى، وما وصل إلى هذا الحال والمآل إلا بحزمة من الجراثيم الخبيثة التي تغلغلت في قلوبهم، وتقاسمت وتلاحمت حتى استفحلت، ففسد القلب، وفسدت من ورائه الأعضاء والأفعال والأقوال.

تلك الحزمة – كما أشارت الآيات الشريفات – هي: الإفساد الحسي في الأرض والمعنوي في النفس، قطيعة الأرحام، عدم فهم النص الأقدس وتدبر تجلياته، التآمر على المؤمنين مع أعدائهم وأعداء دينهم، اتباع كل ما يغضب الله ﷻ، كره كل ما يرضي الله ﷻ، الضغينة الدائمة على الدين وأهله.

نعم، يمكن أن تجمع هذه الحزمة الخبيثة من أسباب هذا المرض، وعلة تفشي أعراضه وآثاره – يمكن أن تجمع – في أحد علتين: لا يتدبرون القرآن، البرنامج الإلهي الشفائي، والوصفة الوقائية الدائمة، أو أن محل المرض – القلب – فسد ولا دواء، نتيجة تليفه جراء أعمالهم الفاسدة التي عكفوا عليها[2].

١٠. التشكيك العام:

يقول الله ﷻ: "﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾"[3].

هداية الله ﷻ جعلها للذين عرضوا أنفسهم لسبيلها، فمن ابتدر أول هذا السبيل إيمانا وتسليما، لا محالة بقلبه السليم وفعله القويم هو من المهتدين.

والنقيض للذين عرضوا أنفسهم للضلال، فمن آثر الريبة والفتنة، وبذر بقلبه جرثومة المرض، لا محالة بقلبه المريض وفعله السقيم هو من الضالين.

تلك سنة الله ﷻ في خلقه، أسستها هذه السردية الجليلة، وفق الممارسة والاختبار، فامتحن الله ﷻ عباده بخبر عن خزنة جهنم – مثال عملي غيبي –

(١) والمرض المناسب للمقام هنا: الضعف والنفاق.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٢١٠/٢١)، تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢٤٢/٤)، الكشف والبيان للثعالبي (١٩٤/٢٤)، الهداية لمكي (٦٩٠٦/١١)، البسيط للواحدي (٢٤٩/٢٠)، معالم التنزيل للبغوي (٢٨٦/٧)، المحرر الوجيز لابن عطية (١١٧/٥)، التفسير الكبير للرازي (٥٣/٢٨)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٣٨/٨)، محاسن التأويل للقاسمي (٤٧٤/٨).

(٣) المدثر: الآية ٣١.

اختبار إلهي، شأنه كأي اختبار، ينتج عنه فالح وهالك، ففريق آمن وازداد، وفريق استيقن صدق ما عنده، وفريق ارتاب فهلك.

اختبار فضح مرض الهلكة، وسوء نيتهم، وخطر علتهم، فمنذ أن يعرض الإنسان قلبه للمرض(١)، سيلتهمه جزءا جزءا، حتى يَفْسَد ويُفْسِد.

مرض التشكيك المطلق لكل أمر وخبر، لكل توجيه ونصح، لكل نجاة وفوز، تشكيك إثر تشكيك، وريبة إثر ريبة، حتى يتمكن المرض من قلبه، فيكذب بكل نص وحق، فتكون النتيجة الحتمية الكفر لا محالة(٢).

وهذا ما أوضحته كل السرديات الشريفة معنا، حتمية الاقتران الدائم – حين ينص عليه – بين مريض القلب والمنافق، وكذا بين مريض القلب والكافر، فليس الشأن عطف صفة وحسب – كما يظهر ابتدارا – إنما الشأن صحبة اقتران، وعطف تبعية، وملازمة نتيجة.

❁❁❁

❧ وثاني ما تطالعنا به هذه السردية القرآنية **<u>بالمرض الفرعي للقلب وهو مرض الشهوة</u>**.

ذكر في آية واحدة جليلة، وهذا يأخذنا مباشرة إلى المقارنة التنبيهية بين إحدى عشر آية حول الشبهة، وآية واحدة حول الشهوة.

يقول الله – تعالى –: "﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾"(٣).

يحمل الإنسان بين طياته الداء والدواء معا، وهو بطبيعة الحال من يعرض نفسه لتفعيل دور أحدهما وسيطرته على باقي الأعضاء، فتارة يُفعل دور البكتريا النافعة، فينهض جهازه المناعي، ويقوم بمحاربة أي دخيل فاسد، وتارة ينشط الأخرى الضارة، فيخمل المناعي ويمرض، ومن خلفه بقية الأعضاء لا محالة.

---

(١) والمرض المناسب للمقام هنا: الشك.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري (٣١/٣٤)، زاد المسير لابن الجوزي (٣٦٤/٤)، التفسير الكبير للرازي (٧١٢/٣٠)، اللباب لابن عادل (٥٢٤/١٩)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٣١٧/٢٩)، التفسير المنير للزحيلي (٢٣٥/٢٩).

(٣) الأحزاب: الآية ٣٢.

كذلك الشأن في القلب، فإن الله ﷻ خلق الغريزة الجنسية لهدف محدد، ووظيفة مخصوصة، وأَطّرَ لها أُطرا تسير فيها حد الاعتدال والمشروعية، وما دام الأمر كذلك، فهي السلامة عين السلامة.

أما إذا عرض الإنسان نفسه إلى غير تلك الأطر، فإنها ستكون مرضا لا محالة، قد يصل بالإنسان حد الاستعباد والهوس الجنسي.

والقرآن الكريم أخبر عن مرض الشهوة ومريضها بكل قوة، فمع أقل المؤثرات، وملامح الافتتان يقع أسيرا للفتنة، طمعا في المزيد، ومع كل مرحلة من المؤثرات لا يكفي، بل يطمع مرارا، وهذا سر التعبير بالفعلية التي تفيد التجدد والاستمرارية.

وكعادة السردية الشريفة، وصف الله ﷻ هذا الأسير بالمريض، لأنه أصيب بداء الشهوة في عضوه الرئيس (القلب)، وبذا أصبح هذا القلب المريض يقع فريسة لأدنى محرك، بخلاف الصحيح الذي يصمد أمام الشهوات، فلا تكاد تميله، ولا تحركه.

ثم انطلق النص إلى معالجة هذا الأمر، بسد طريقه الموصل، وغلق بابه المؤدي، حماية لهذا القلب المريض، فتتوفر له سبل العافية شيئا فشيئا.

فقال ربنا ﷻ توجيها: "﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾"، وقال: "﴿ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾"، فالبداية باختيار الأسلوب والطريقة، والنهاية بالنوعية والمحتوى، بذا ينجو المجتمع، وتسكن الغرائز، وتشفى الأمراض.

❁❁❁

⇐ إضاءات تدبرية على الطريق:

⇦الإضاءة الأولى: القاسم المشترك لمنظومة المرض القلبي في القرآن الكريم:

المتدبر لحقل التفسير، يجد أن القاسم المشترك الكلي في منظومة المرض القلبي عبر سرديتها يتمحور حول **النفاق**، إذ هو في عرف المتدبر أُس الأمراض القلبية، ومنه تتولد كل الأمراض الخبيثة النفسانية والمجتمعية.

وقد تداعت الجهود البحثية[١] لمحاولة حصر الأمراض القلبية الناتجة عن هذه الجرثومة الخبيثة – النفاق – غير أن الورقة البحثية من طابعها الإشارة المختصرة إلى محورية القصد البحثي دون فروعه المساندة، لذلك آثرت الإشارة دون العبارة الطويلة، من خلال هذا الرسم التخطيطي المختصر، علّه يفي بالفكرة المرامة.

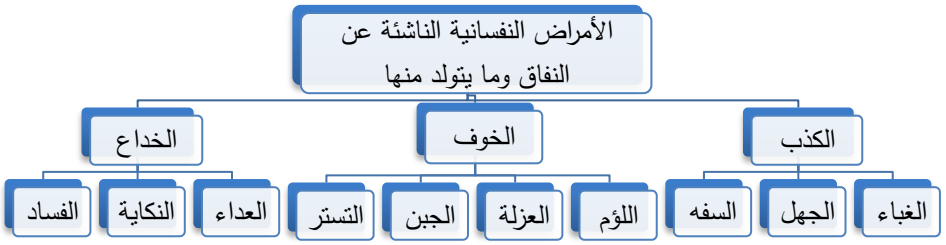

❁❁❁

⇦ **<u>الإضاءة الثانية: أسباب المرض القلبي في القرآن الكريم:</u>**

كذلك المتدبر في شأن تلك السردية لمنظومة المرض القلبي، يجد أن النص الشريف قرن دائما بين ملمحين، أولهما الذي في قلبه مرض، ثم يقرن بالآخر الموصوف بصفة مخصوصة.

في عرف الدرس التفسيري – كما مرّ عند دراسة الآيات – ذاك المعطوف أو المقرون دون عطف، من باب عطف الصفات (أحدها بيان للذين في قلوبهم مرض) وهذا قدر – إن حُق لمثلي التعليق – لا يرتقي لدقة وعمق السردية القرآنية.

فالشأن ليس عطف صفات وبيان وفقط، وإلا لكانت الآيات التي تحدثت عن مرض القلب جاءت جميعها على نفس النسق، إنما الأدق الذي ينطقه النص من وراء تدبر، هو أن المعطوف أو المقرون جاء على سبيل السببية لنشأة مرض القلب، لأن كل آية من تلك الآيات جاءت بتعبير مختلف، وعطف مختلف، مما يوحي للمتأمل أن ذاك السرد العطفي/ القرني لم يكن بيانا وحسب، إنما لعلة أخرى، أظهرها لهذه التعددية المختلفة أن يكون السياق ذاته

(١) ومن أجل هذه المحاولات وأشملها: مقاربة الطاهر ابن عاشور في تحريره ٢٧٩/١ وما بعدها.

متحدثا عن البذرة المرضية التي أنشأت مرض القلب في هذا الموقف، وهكذا في بقية الآيات، فملازمة هذه الصفة وأهلها، والقرن معها في نفس الحال والمآل، حتما سينتج شبه اتصال، وبذرة نشوء، سيما مع بيئة قلبية عندها القابلية للعدوى والإنتاج.

وخشية الإطالة التقديمية، أشير هنا – اختصارا – إلى الأسباب التي أنتجت العلة المرضية، ومن ثَمَّ تستفحل وتلتهم القلب، ومن ورائه الأقوال والأفعال، ليصل في النهاية إلى النتيجة الحتمية التي أظهرتها الآيات الشريفة.

"﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾"(١).

أصابهم المرض لأن قلوبهم كانت مكذبة، فمجرد أن صادقوا ولازموا الكذبة والمنافقين، ترعرعت بذرة المرض، حتى ملئت القلب وصار قلبا مريضا فاسدا.

"﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾"(٢). أصابهم المرض لأنهم كانوا في شك من أمر الدين، فعندما صادفوا تلك الفئة الخبيثة من المنافقين الموالين لأعداء الدين، ازدهرت جرثومة المرض في قلوبهم، ليصير مريضا فاسدا.

"﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾"(٣).

أصابهم المرض لأن قلوبهم كانت مملوءة بالعجب والغرور، فتهيأت هذه البيئة القلبية لإنتاج المرض فور ملازمة هؤلاء الفئة الذي اغتروا بأنفسهم وعدتهم، فضلا عن عدم الإيمان بالله ﷻ.

"﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾"(٤).

(١) البقرة: الآية ١٠.
(٢) المائدة: الآية ٥٢.
(٣) الأنفال: الآية ٤٩.
(٤) التوبة: الآية ١٢٥.

أصابهم المرض، لأن قلوبهم خبيثة مملوءة بالفتنة ممن لازموهم من أهل النفاق والكفر، فور الاختبار لقلوبهم، تشرب الفتنة ويفسد الفهم، فيزاد الخبث إلى الخبث، وتكون الخاتمة كمن لازموا.

"﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾"(١).

أصابهم المرض جراء القسوة التي كانت بذرتها بقلوبهم، فعندما التقوا بمصدر متحرك يناسب بذرة قلوبهم، مرض القلب وتحول إلى بيئة مرضية منتجة.

"﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾"(٢). أصابهم المرض لأن قلوبهم خالية عن الإيمان، فحتما عندما تقابل أهل الريبة والفتنة، سيكون هذا المرض جائحة، ويكون ذاك المريض المعول الذي بيد هؤلاء.

"﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾"(٣). أصابهم المرض، لأن قلوبهم في شك من وعد الله ﷻ وغرور بما لديهم، فعندما سقى المنافقون هذه البذرة الخبيثة، أنتجت مرضا شديدا، ليتطاول هذا المريض في النهاية على وعد الله ﷻ لرسوله ﷺ وعلى المؤمنين.

"﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾"(٤). أصابهم المرض، لأن قلوبهم سكنتها جرثومة الشهوة، مع أدنى مؤثر تنشط وتستفحل وتتحكم في عقولهم وأقوالهم وأفعالهم.

"﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾"(١). أصابهم المرض،

(١) الحج: الآية ٥٣.
(٢) النور: الآية ٥٠.
(٣) الأحزاب: الآية ١٢.
(٤) الأحزاب: الآية ٣٢.

لأن قلوبهم قابلة لتصديق الأكاذيب، محبة للإشاعات، باحثة عن البيئة المسمومة بالأباطيل، فور وجود هذه البيئة وتوافرها، تنشط هذه الفئة المريضة وتكون نِعم – بئس – المساعد والمساند.

"﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴾"(٢).

أصابهم المرض، لأن قلوبهم أصلا دنسة بالخوف، ويسكنها الركون والدعة، فمع ظهور أي بادرة للنصرة المعنوية أو الحسية، تنشط هذه البكتريا الهالكة، ويمرض القلب ويخور.

"﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴾"(٣).

أصابهم المرض، لأن قلوبهم محل للحقد والعداوة للنبي ﷺ وللمؤمنين، فور تحين الفرصة، تخرج هذه الأمراض الخبيثة، تلحق الأضرار والأمراض بالمجتمع المسلم كله.

"﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾"(٤).

أصابهم المرض، لأن قلوبهم بيئة خصبة للتكذيب فضلا عن الشك، فعندما تجد هذه البيئة نفرا من أهل التكذيب والتشكيك، ينشط مرض قلوبهم حتما، ويكونوا العون لهم بسبب مرضهم الذي التهم بذرتهم وازدهر بها.

❁❁❁

⇦ <u>الإضاءة الثالثة: عواقب المرض القلبي في القرآن الكريم:</u>

بعد هذا العرض المختصر عن سردية المرض القلبي في القرآن الكريم، يحسن إتماما للفائدة أن يختم البيان بعرض موجز عن عاقبة هذا النوع

=

(١) الأحزاب: الآية ٦٠.

(٢) محمد: الآية ٢٠.

(٣) محمد: الآية ٢٩.

(٤) المدثر: من الآية ٣١.

المرضي، فليس القصد الحكيم هو البيان السببي فقط، بل التحذير العقابي كذلك.

فمن عرَّض نفسه لعلة قلبية، وتركها تستفحل وتستشري حتى تلتهمه، ليكون من خواص أهلها، استحق حينئذ هذا العقاب الموصوف، ما لم ينهض للتعافي والشفاء.

ولعل أظهر هذه العواقب المستحقة للأمراض القلبية التي أظهرها النص، هي[١]:

١. **زيادة المرض والعذاب الأليم**. البقرة: الآية ١٠، الحج: الآية ٥٣، محمد: الآية ٢٠.

٢. **الندامة والحسرة والخسران**. المائدة: الآية ٥٢، الأنفال: الآية ٤٩، الأحزاب: الآية ١٢.

٣. **الفتنة والختم**. التوبة: الآية ١٢٥، المدثر: الآية ٣١.

٤. **اللعنة والطرد الحسي والمعنوي**. النور: الآية ٥٠، الأحزاب: الآية ٦٠.

٥. **الفضيحة في الدنيا والآخرة**. محمد: الآية ٢٩.

❁❁❁

⇦ **<u>الإضاءة الأخيرة: وما الشفاء إذا؟</u>**

الله – تعالى – بيّن في كتابه الحكيم أعمالا وصفات للذين في قلوبهم مرض، كما أظهر وأوضح أعمالا وصفات للمؤمنين.

وليس مرض القلب مقتصرا على النفاق فقط، بل أصل متجذر في القلب الإنساني سواء على حافة الكفر والشك والنفاق، أو على حافة الشهوات والرذائل والجهل، وهذا كله ما أكدته الآيات الكريمات.

<u>وبالنهاية</u>: أمراض القلوب والأبدان كما أرشد القرآن الكريم إلى منظومة كل منهما – تفصيلا وعلة ومدارا – كذلك أرشد إلى طرق التعافي والشفاء منهما، بله النجاة قبلُ، وهذا ما ستظهره السطور القادمة محط المبحث التالي. ←

❁❁❁❁❁

(١) سيكتفى بذكر رقم الآيات بسورها فقط، اعتمادا على ذكرها في الصفحات السابقة مرارا.

المبحث الثاني: الشفاء في القرآن الكريم
بين الحسي والمعنوي .. (الدواء والدعاء)

الألم شعور إنساني يصعب تعريفه اصطلاحيا[1]، بيد أنه شعور يدركه كل إنسان منذ اللحظة الأولى له بهذا الوجود، منذ أول صدام له مع الحياة، بأنفاسه الأولى تخالط جهازه التنفسي – منذ ذاك – حتى آخر أنفاسه التي تخرج مفارقا هذه الحياة.

شعور استحكم الإنسان منذ بدء هذه المعمورة، ورافقه توأمه الآخر – الخوف – فتقلب الإنسان بين هذين الشعورين، باحثا في كل طريق للتغلب عليهما، أو على الأقل الحد من غلبتهما.

ورغم هذه المعرفة الدقيقة بالألم، وكذا محاولات الحد منه، التي تعتبر أقدم العلوم بالتاريخ، إلا أنه وإلى الآن لم تنجح نجاحا تاما – والجوائح العالمية أكبر دليل – فمازالت المحاولات لا تنتهي، والطرق لم تختم.

وعلى هاتي المحاولات وتلك الطرق، كان القرآن الكريم نعم النبراس في حوالك هاتي الطرق، والمعين في متاهات تلك المحاولات، فمع وجود ظاهرة المرض البدني وما يرافقها من شعور الألم، وكذا ظاهرة المرض القلبي وما يرافقها من فساده، كان الكتاب الحكيم **بمنظومة الشفاء البدني والقلبي** اللجوء الأبرز، والنور الأبين لتأسيس وممارسة فكرة التداوي بشقيها العضوي والروحي.

والمتدبر لمنظومة الشفاء في سرديتها المقدسة، يجد أن السردية لم تكن بدعا عن واقع الإنسان، بله ما أنتجته التجارب المعملية والسريرية.

ففسيولوجيا الجسد (الوظائف الجسدية) كما ترتب أمر علتها – في الأغلب – على حالة مادية، كذلك اتفق حدوث شفائها على حالة مادية أخرى مضادة للأولى.

---

(١) بدهي لا يمكن تعريف المعرف، فرغم المحاولات الكثيرة لتعريفه، إلا أن أيا منها لم يصل إلى الجامعية المانعية، فحقا لا يمكن وصفه إلا لمن عايشه وتذوقه، ولعل نظرة عجلى في هذه الحاشية تجمع جل التعاريف الواردة حول ظاهرة الألم. ينظر: الموسوعة العربية (٣/٣٥٢).

هذا في عرف متخصصي الجسد، لكنّ النظرة الروحية – الدينية – أضافت قناة تمر خلالها تلك النظرة التخصصية، بتحقق تلك الحالة المادية من خلال القوى الإلهية العليا – النظرة الميتافيزيقية – .

فيتحقق الشفاء من العلة المرضية – وفق النظرة الدينية – عبر السبب المادي، والآخر الإلهي، المحقق له والمنتج لآثاره.

والناظر في الحقل المعرفي لآيات القرآن الكريم، يجد تصريحا لهاتين الحالتين، الاستشفاء عبر السبب المادي (الدواء) والآخر الإلهي (الدعاء).

فصرحت الآيات الكريمات بقاموس من المفاهيم الاستشفائية عبر القناتين، كالاستشفاء بالأسباب المادية، من أمثلة الأدوية الطبيعية، أو الكيميائية، أو أنواع الرياضة العلاجية .. إلخ من مصاديق التأثير المباشر المادي، وكذا الاستشفاء بكلام الله ﷻ، أو بالدعاء له سبحانه، أو بمعجزة على يد نبي من أنبيائه عليهم السلام، أو بالإيمان واليقين.. إلخ من مصاديق التأثير غير المباشر المادي.

وعلى كلٍ فقد أسس القرآن الكريم لمنظومة علاجية متكاملة، يعجز البيان فضلا عن هذه الصفحات القليلة أن تحوي خصائصها ومعالمها الجليلة.

❁❁❁

وقد نيط بهذه الورقة البحثية محاولة المعايشة والإخراج لتلك الثنائية عبر سطورها، في محاولة استقراء للحقيبة الشفائية في عطاءات النص ومدونته التفصيلية، فأول ما يبدأ به:

قسيم الثنائية الأول: "الشفاء الحسي/ الدوائي عبر الرؤية القرآنية":

ذاك القسيم[١] استعمل الممارستية أكثر منها الوصفية، حيث اتجه المنظار القرآني صوب التوجيه الدوائي للاستشفاء من المرض، بل سبقت السردية الشفائية في القرآن الكريم المنظمات الصحية في تأسيل/ تمرير منظومة الدواء، ومنظومة الطب الوقائي، وكذا منظومة الطب النفساني.

⇦ فأول ما تطالعنا به هذه السردية الدوائية، تلك الثلاثية المقدسة، التي أصلت لمنظومة الاستشفاء الدوائي في القرآن الكريم، من خلال منتجات الدواء الأصلية في تاريخ الإنسان، ألا وهي: المنتج الدوائي من الحيوان، المنتج الدوائي من النبات، المنتج الدوائي من الطبيعة.

ضرب الله ﷻ لكل أصل من هذا الأصول مثالا أصلا في بابه، يندرج تحته بقية الفرع الدوائي، ويحوي أشهر معالم تلك الفروع، فضرب للمنتج الحيواني منتج النحل، وضرب للمنتج النباتي اليقطين، وضرب للمنتج الطبيعي[٢] عين الماء.

⇦ **إضاءة جانبية على الطريق:**

يلزمنا السياق البنائي المعرفي أن نقدم بين يدي الأصول الدوائية الحسية، الأصول المرضية الحسية قبلُ، حتى يستقيم الهيكل التنظيمي للمنظومة الدوائية في النص الشريف.

فطبعي أن الأصل الدوائي يستلزم أصلا مرضيا، يزاحمه، فيداويه، وليست هذه الورقة البحثية محطا طبيا، أو منتجا دوائيا، إنما الغرض المستلزم البنائي فقط[٣].

---

(١) وقد سبقت الإشارة الإحصائية للآيات ومخرجها اللفظي في التمهيد.

(٢) آثرت التعبير عن العين بالمنتج الطبيعي، كمثال ضرب للدوائية الطبيعة، رغم اتفاق الثلاثية في منشأها الطبيعي، فلم تتدخل يد الإنسان الفعلية – عُبر بذاك – تمييزا فقط للعين عن النحل واليقطين، وإلا فالثلاثة من خلق الله – تعالى – في الطبيعة.

(٣) استفيد هذا المستلزم البنائي من الاستقراء التام لـ: أساسيات علم الأمراض، تأليف: حسين عبد الستار، علم الأوبئة، تأليف: رودولفو ساراتشي، ترجمة: أسامة فاروق.
. http://www.emro.who.int/ar/health-topics.html
.https://www.moh.gov.sa/Pages/Default.aspx

الباثولوجيا (علم المرض) أحد فروع الطب الرئيسة، يعنى بدراسة صفات المرض، وما يحدثه في الأنسجة من تغيرات، وكذا ما تستثيره فيها من ردة فعل، فهو كالجذع لعلوم الطب.

ومِن ثَمَّ عكفت المؤسسات الطبية قديما وحديثا على تصنيف الأمراض التي يصاب بها الإنسان، تصنيفات متعددة ومختلفة، حتى يمكن حصرها في كليات، ويدخل تحتها الفروع، ليسهل التعامل معها دراسة وتشخيصا.

وفي كنف باثولوجيا الأمراض، نشأ بالتبعية، قرين وأصل، وهو علم الإيتيولوجيا (أسباب المرض) الذي يبحث في أصل سببية حدوث المرض بجسم الإنسان، والعوامل الجينية والبيئية التي تعد أسبابا للمرض.

والذي تعنى به هذه الإضاءة الجانبية، تلك السببية الكلية التي أشارت إليها تلك العلوم الطبية، دون الفرعية، فهذه محلها الأبحاث الطبية.

ولعل أشهر هذه الكليات التي تسعف تلك الإشارة البنائية هنا هي:

⇦ الوراثية: والتي تصاحب المريض منذ الولادة، ويمكن توريثها.

⇦ المزمنة: والتي تصاحب المريض فترة طويلة، حتى ينتج عنها أثرا في وظيفة أي من أجهزة الجسم، كالأورام الخبيثة، وأمراض القلب ..إلخ.

⇦ السارية/ الحادة: والتي تنتج عبر أسباب ممرضة للأعضاء، كالفيروسات، والطفيليات، والجراثيم .. إلخ.

⇦ الأيضية: والتي تنتج جراء فشل بعض الأعضاء في إنتاج بعض العناصر اللازمة له، كالحال في البنكرياس المصاب.

⇦ القصور: والتي تحدث سببية فقدان مواد خاصة للنمو والتطور، كالحال في نقص فيتامين(D) فيتسبب عنه بعض أنواع الأمراض.

إلى غير ذلك من التصنيفات والفروع التي يصعب حصرها، مما أشارت إليها المنظومة الطبية، فضلا عن المنظومة النفسية، وحصر أسبابها وكلياتها.

♦ وسبحان ربي الذي قدر فهدى، أن كل هذه الأسباب والتصنيفات التي أصلتها هذه العلوم الطبية، قد أتت عليها تلك الثلاثية الدوائية المقدسة، بأصولها الثلاثة، مزاحمة واستشفاء، حتى إن السطور القادمة لتفصح عجبا من هذا التناسق والتناغم بين الكليات في المنظومتين (الدوائية القرآنية، والطبية التجريبية).

وحتى لا يستبيح القلم الأوراق تعجبا، لزم الآن الاتجاه صوب معالم الثلاثية الدوائية المقدسة، تأسيسا لمنظومة الشفاء الحسي/ الدوائي في القرآن الكريم.

أولا: المنتج الدوائي من الحيوان (شراب النحل)[1]:

يقول الله – تعالى –: "﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾"[2].

أسلوب قرآني بديع، تترا منه عشرات الأسئلة التدبرية، التي تغزو القلب والعقل تفاعلا مع هذا النص الجليل.

- ما هذا التكريم المبهر للنحل، إذ خصه الرب ﷻ بخصوصية الوحي إليه؟ وهل حقا يستحق هذا المخلوق الصغير كل هذه الحفاوة؟
- وما تلك الحكمة من إضافة الوحي إلى الربوبية دون الألوهية؟
- ما الدلالة الأسلوبية في التعبير عن النحل بصيغة التأنيث على طول الخط، بينما الأسلوب في مخلوقات أخرى بالتذكير، كالنمل مثلا؟
- هل للتنصيص على مساكن النحل أهمية هنا، رغم اشتراكها مع الكثير من الحشرات والزواحف والطيور والحيوانات عموما؟
- ما الحكمة في حروف المعاني التي تصيح ببلاغة التعبير القرآني في استعمال "من" بدلا من "في" في الأمر باتخاذ البيوت من الجبال والشجر ..إلخ؟

---

(١) استفيدت هذه النظرة الدوائية/ الطبية في بحث النحل من الاستقراء التام لـ: نحل العسل في القرآن والطب، للدكتور: محمد علي البني، حياة النحل، تأليف: موريس ماترلينك، ترجمة: ميشيل تكلا، الحيوان في القرآن الكريم، للدكتور: زغلول النجار(ص٧٥ – ١٢٨)، الإعجاز الطبي، د: الجميلي (ص١٩٧ وما بعدها)، الآيات الكونية في القرآن الكريم، للدكتور: زغلول النجار (٤٩٥/١ – ٥٢٨). وكذا استفيدت النظرة التفسيرية (التخصصية) من: النكت والعيون للماوردي (١٩٩/٣)، التفسير الكبير للرازي (٢٣٨/٢٠)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٨٢/٤)، السراج المنير للشربيني (٢٤٦/٢)، محاسن التأويل للقاسمي (٣٨٤/٦)، تفسير المراغي (١٠٦/١٤)، الوسيط للزحيلي (١٢٧٩/٢).

(٢) النحل: الآيات ٦٨، ٦٩.

⇦ حروف المعاني هنا تزلزل العقل التدبري، حيث جاء حرف العطف "ثم" الترتيبية مع التراخي، دون "الواو" أو "الفاء"، وكأن إشارة إلى الأكل بعد مدة، لماذا؟

⇦ ما السر في ذاك التعبير بالأكل من كل الثمرات، رغم أنها لا تحط إلا على الزهور، الحلو المكشوف منها، فلا قدرة له على المر أو الصلب أو المغطى؟

⇦ عطفية جملة "فاسكلى" على جملة "ثم كلى" صدمة واقعية، إذ المفترض أن تسبقها لا أن تعطف عليها، لأن النحل يطير يبحث ثم يأكل، فلماذا؟

⇦ سردية أخرى تستدعي عجبا أشد، إذ جاءت جملة "يخرج من بطونها" بعد فعل الطيران، والمشاهد أن العسل يخرج بعد الأكل لا الطيران، فلماذا؟

⇦ عجيب أن عبرت الآيات الشريفة عن الخارج من بطن النحل باسم الشراب، ولم تصرح باسمه هنا (العسل)، رغم التصريح بالاسم في مواطن أخرى(١)، على الحين أن الآيات السابقة صرحت باسم اللبن يخرج من الأنعام، ما السر إذا؟

جمالية تدبرية في آيتين من النص الأقدس، تفتح على القلب والعقل أسئلة تتدافع هنا وهناك، تحتاج إلى أجوبة شافية، ولعل إطلالة في الدرس التحليلي تفتح آفاقا للإجابة وزيادة.

بيد أن هذه الورقة البحثية تعنى بالنظرة الموضوعية في الدرس التفسيري، إلا أني لم أرد أن أحرم نفسي شم رحيق أزهار هذه الآيات الجليلة، والوقوف على بعض ثمارها، وإخراج بعض شرابها، ينهل منه القلب والعقل.

ولعل الشراب الذي تنهله النظرة الموضوعية هنا، الرؤية التأسيسية لمنظومة الشفاء الدوائي في القرآن الكريم، من خلال منتجها الحيواني (شراب النحل) دون أي ملمح آخر.

(١) كما في قوله – تعالى –: "﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾" [محمد: من الآية ١٥].

من المقرر في عالم الأدوية، ما لعالم النباتات من خصائص علاجية جمة، والشيء الذي أثبتته المحافل البحثية، أن النحل من قدراته التي وهبها الله ﷻ له أنه يجمع مع ما يجمعه من كل نبته، الخصائص الدوائية التي فيها، ويضم هذا في منتجه الذي يصنعه ويطوره في معامله الخاصة، التي أسماها القرآن الكريم "بطون".

والعجيب الذي زلزل نظرتي القرائية في هذا التعبير القرآني الدقيق، والذي لم يكتشف إلا في العصر الحديث، أن ضمير التأنيث في "بطونها" يعود إلى إناث النحل من الشغالات فقط، وهي التي تقوم بصنع هذا الشراب الذي فيه الشفاء.

وهذه البطن التي نُص عليها، تأتي بعد كلٍ من الرأس والصدر، وتتألف من ثمان حلقات رقيقة مرنة، تحوي بداخلها مجموعة من الأجهزة، تتحد في مجموعها، بعد عملية صناعية معقدة، لإخراج حقيبة شفائية متكاملة من مجموعة أفراد أسماها النص الشريف بشراب النحل المختلف الألوان، وهي: العسل، الغذاء الملكي، حبوب اللقاح، الصمغ (العكبر)، الشمع، السم، وكلها تخرج من بطون الشغالات في الحالة السائلة (شراب) ثم يتجمد أو يتبلور بعد ذلك لعوامل خارجية، فسبحان ربي ﷻ.

وهذا ما عناه النص هنا بتسمية ما يخرج في هذه الآية بشراب، ولم يذكره باسمه العلم، فالخارج أعم وأشمل من العسل وحده، وكذا الشفائية المتعددة بتعدد الخارج.

ولقد عُدّ لهذا الذي يخرج من بطنها، وفيه شفاء للناس من الخصائص الدوائية ما ازدحمت به الأبحاث، لعل أشهرها بما يناسب الورقة البحثية هنا بسياقها المعرفي:

⇦ مقوٍّ ومؤثر جدا للشبكة العصبية، وتوليد الطاقة للجسد بسرعة شديدة، فهو سريع الامتصاص، والاحتراق، وكذا للقلب، والعضلات، والجهاز الحركي ككل.

⇦ مضاد حيوي قوي جدا، ومطهر فعال، مما جعل من العسل علاجا للحروق، والجروح، والأمراض الجلدية، كلٌ بنسب طبية مخصوصة، وطرق تجريبية معينة.

⇦ علاج ناجع للعديد من أمراض الجهاز الهضمي، والتنفسي، والبولي/ التناسلي، والمناعي، وكذا لأمراض اليبوسة والخشونة.

⇦ يحوي غذاء الملكات على قيمة غذائية عالية، تفيد كل أعضاء الجسم بلا استثناء، كذا لسعات النحل المعروفة، علاج لأمراض الروماتيزم، والأعصاب، والملاريا، لكن شرطية الطريقة الطبية التجريبية، غير العشوائية.

كل هذا بنسب[١] تتعجب منها المراكز البحثية، كيف جمعتها النحلة بهذه الدقة بما يناسب جسم الإنسان، مما يجعل اتخاذ هذه التدابير العلاجية، وهذه الدقة الدوائية، معيارا أصيلا في منظومة الشفاء الحسي في الطب التجريبي.

حقيقة بعد الوقوف على بعض ما كتب حول هذا المنتج العجيب، وهذا الكم المعلوماتي الهائل حول خصائصه الدوائية – حقيقة – لم أجد أدق وصفا، ولا أشمل بيانا من كلام ربي ﷻ في هذه الآيات الشريفة حول النحل ومنتجه الشفائي.

(١) أبرز هذه الفيتامينات: (A, B, C, D)، ومن المركبات: الصمغ، اللاكتيك، والفورميك، والسيتريك، إضافة إلى بعض المعادن الهامة: كالحديد والفسفور والبوتاسيوم والمغنسيوم واليود، وغيرها الكثير، وكذا بعض المضادات الحيوية، والهرمونات، والإنزيمات، والأحماض الدهنية والأمينية، والبروتينات، والزيوت الطيارة، وتعود نسبة كبيرة من القيمة الطبية للعسل إلى هذه المواد، وهذه التركيبة الفريدة، بنسب دقيقة اختبرها العلماء في كل ما يخرج من بطون النحل، مدونة في المظان المشار إليها.

ثانيا: المنتج الدوائي من النبات (غذاء اليقطين)[1]:

يقول الله ﷻ: "﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾"[2].

سادس ستة، من كوكبة نيرة في تاريخ الدنيا، سطرتها هذه الآيات الشريفات عبر سمع الزمان كله، ذاك نبي الله "يونس" عليه السلام في إحدى سردياته في الكتاب الجليل، مع قومه الذين آمنوا بَعدُ، وأدركوا أنفسهم قبل الهلاك[3].

سادس ستة بعد "نوح"، و"إبراهيم"، و"موسى وهارون"، و"إلياس"، و"لوط" عليهم الصلاة والسلام، جميعهم خرجوا بقلة آمنوا، وكثير هلكوا.

أما "يونس" عليه السلام فشأن مختلف، ونتيجة معاكسة، ونهاية مفارقة، أفصح الدرس التحليلي عن مشاهدها، وكشف عن ملابساتها، ومضامين أحداثها، بله ما أصاب "يونس" عليه السلام من بلاء في نفسه وجسده، وكذا عن نجاته، وعودته، ورفعته.

وغير خفي عن قارئنا اللبيب، ما لهذه الورقة البحثية من خصوصية الدرس الموضوعي فقط، وسيرها المعرفي لموطن الشاهد وحسب.

لذا لزم محاولة الامتثال لقانون المنهج، لتكون السطور عن الأصل الثاني من منظومة الشفاء الدوائي/ الحسي في القرآن الكريم، من المنتج النباتي "اليقطين".

ذاك الذي اختاره الله ﷻ خاصة دون غيره، لينبته على نبيه "يونس" عليه السلام بعد أن لفظه الحوت إلى العراء – الأرض التي لا نبت فيها ولا ظل ولا حياة – سقيما/ مريضا/ عليلا/ هذيلا/ ضعيفا، لتكون تلك النبتة هي الغذاء والدواء

(١) استفيدت هذه النظرة الدوائية/ الطبية في بحث اليقطين من الاستقراء التام لـ: الإعجاز الطبي للجميلي (ص١٩١)، الآيات الكونية د. النجار (١٦٥/٣)، النبات د. النجار (ص١٨٧)، تاريخ الصيدلة لجورج شحاته (ص١١ وما بعدها)، اليقطين، لرضا محمد (ص٢٠ وما بعدها).

(٢) الصافات: الآيات ١٤٥، ١٤٦.

(٣) استفيدت النظرة التفسيرية (التخصصية) من: الوسيط للواحدي (٥٣٣/٣)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٦/٤)، السراج المنير للشربيني (٣٩٤/٣)، محاسن التأويل للقاسمي (٢٢٨/٨)، تفسير المراغي (٨٣/٢٣)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٧٧/٢٣).

والشراب والملجأ لهذا الجسد العليل، حتى يقوى ويستطيع الحركة والعودة مرة أخرى إلى قومه.

فلماذا اليقطين إذا؟ اليقطين نبتة معروفة، تزرع عشبيا في الأراضي المكشوفة، وتنتمي إلى النباتات الزاحفة، التي لا تقوم على ساق، فهي تفترش الأرض، وتتميز هذه العائلة النباتية بالوبر الكثيف، الذي يغطي معظم أجزاء النبات.

هذا قدر متفق عليه علما ومشاهدة، وعليه نشأ استفهام قديم في عِلّية وصفه بالشجرة – إذ الشجر هو النبات الذي له ساق، بخلاف العشبيات التي تفترش الأرض – في النص الشريف!

والنظرة التدبرية للنص الشريف، توحي أن اليقطينة التي أنبتها الله ﷻ لنبيه "يونس"عليه السلام كانت من الحجم والخصوصية، لتؤدي وظيفتها الرئيسة التي أنبتت من أجلها، وهي الغذاء والدواء والكساء والحماية لنبي الله "يونس" عليه السلام حالة سقمه.

بخلاف النبات بطبيعته المشاعة المشاهدة، فله دوره الذي يؤديه على حالته الزاحفة، من غذاء ودواء وشراب، دون الكساء والحماية.

أما لماذا اليقطين خاصة دون غيره من عالم النبات؟

تحقق في اليقطين ما لم يتحقق في غيره – إلا على ندرة – ليناسب حالة الجسد عند سقمه، مما جعله يكون المرشح الأول والرئيس لهذه المهمة، وأشهر هذه المؤهلات الغذائية والطبية:

⇦ اليقطين "غذاء ودواء" فهو مركب يحوي العديد من الفيتامين، وكذا يحوي مجموعة من الأحماض الأمينية الهامة للجسد.

⇦ من أهم خصائصه الدوائية، التي استقى منها أحد أصول صناعة العقاقير (التجانس بين المركبات)، فاليقطين من أدق خصائصه أنه يتولد منه خلط مجانس لما يصاحبه، فمتى خالط حارا تجانس، ومتى خالط باردا تجانس، وهذا يعرف في عالم الأدوية بـ: العنصر المعادل لغيره.

⇦ علاج للعديد من الأمراض الجدلية، وأمراض الجهاز الهضمي، والبولي، والتناسلي، وبعض أمراض الجهاز المناعي.

⇦ يحوي كميات كبيرة من المضادات الحيوية في جميع أجزاء النبتة، مما يجعل اليقطين أحد أهم الأغذية المداوية للضعف العام.

⇦ من خصائص أوراق هذه النبة أنها وبرية ناعمة، ولكونها تحوي مضادات حيوية، فلا تقربها حشرة ولا بكتيريا قط، مما يجعلها سبيلا للوقاية والنظافة.

⇦ أغلب عائلة اليقطينيات تحوي ثمارها ماء، وتؤكل نيئة، مما يجعل من اليقطين غذاء ودواء وسقاية.

فهو من ألطف الأغذية، وأسرعها فاعلية طبية للجسم، فكان أنسب دواء وغذاء لحالة نبي الله يونس عليه السلام التي كان عليها، ولكل من أصاب جسده إعياء وضعف، حتى إنه من عظيم خصائصه الدوائية خصصت فيه رسائل علمية أكاديمية، لإظهار بعض هذه الخصائص الدوائية(١).

لذا صح اليقطين أن يكون أصلا ضمن ثلاثية المنظومة الدوائية في النص الشريف، ليكون عمادا في تأسيس ركن من أركان صناعة العقاقير، وهو التجانسية بين المركبات، وسرعة أثرها في الجسد العليل.

ثالثا: المنتج الدوائي من الطبيعة (عين الماء)(٢):

يقول الله – تعالى –: "﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾"(٣).

بين بلاء ثم بشرى ونصر وملك، وآخر بلاء ثم صبر ومقاومة واستقامة – بين هذا وذاك – كانت تلك السردية الشريفة.

---

(١) ذكر بعضها في المظان المشار إليها في الحاشية السابقة.

(٢) استفيدت هذه النظرة الدوائية/ الطبية في بحث عين الماء من الاستقراء التام لـ: الإعجاز الطبي للدكتور الجميلي (ص١٣٧ وما بعدها).، العلاج بالماء، د: محمد السقا عيد، العلاج بالماء قديما وحديثا، ماهر حسن محمود.
https://www.physiofunction.co.uk/neurological-services/hydrotherapy.
وكذا استفيدت النظرة التفسيرية (التخصصية) من: معالم التنزيل للبغوي (٩٦/٧)، زاد المسير لابن الجوزي (٥٧٦/٣)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٣١/٥)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٢٢٩/٧)، روح المعاني للألوسي (١٩٨/١٢)، التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٢٠٨/٢٣).

(٣) ص: الآيات ٤١، ٤٢.

كان العبد الصالح "أيوب" عليه السلام أحد شموس الدنيا من أنبياء الله ﷻ المتفق معهم في صفاته ومكانته، المختلف عنهم في بلائه وسرديته.

أقصوصة في كل تقلباتها عبر القرآن الكريم تثير العواصف الاستفهامية، فحين تمنحك القصص شيئا من التفاصيل الخاصة، والسمات المشتركة يرضى بها العقل والتساؤل، تجد هنا السمات المشتركة صريحة، والتفاصيل الخاصة صامتة.

عقل متطلع، ونفس تتشوق إلى معرفة أنماط الحكاية، ما هذا البلاء؟ ما تفاصيل هذا الضر؟ ما سببه وموضعه؟ ما نوعية النُصْب والعذاب؟ ما حقيقة ذاك المس؟ وما حدوده؟ كم مدته؟ وما ملابسات هذا الدعاء؟ أكان مع بدايته أم بعد مدة؟ ولماذا رسمت القصة هنا مكانا للشيطان داخل الصورة؟ لماذا؟ ولماذا؟ ولماذا؟

تساؤلات تترا، ودلالات تثار، فضلا عن ألغاز تزأر حول ما سرد لأهله عليه السلام وماله، وكأن الجمالية تفصح عن نفسها، أيها المتلقي: اكتشف ومارس واستخلص.

ولا غرو أن الدرس التحليلي اكتشف ومارس واستخلص، بيد أن قانون المنهج وسلطان الاتجاه، يلزم الورقة البحثية بمناجاة الدرس الموضوعي في شأن منظومة الدواء الحسي عبر الأصل الثالث، وهو التداوي بالعين المائية.

فما هو هذا الأصل؟ وما طبيعته؟ وما نتيجته؟

"﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾" ذاك الدواء، وتلك العقار الذي كان به الشفاء لنبي الله "أيوب" عليه السلام ومن خلفه كل من ناسبه فاعلية هذا الأصل وامتداه.

أصل دوائي، يغتسل ويشرب منه المريض، امتدت فاعلية الاستشفاء به عبر الحضارات المختلفة، والعصور المتعاقبة، حتى يوم الناس هذا[١].

(١) عند نزول الأمطار، أو خلال ترسبات المياه الجوفية، أثناء مرورهما خلال طبقات الصخور المتنوعة، يجمع الماء في سيره العديد من المعادن والترسبات، وتصبح – بنعمة الله تعالى – جزءا رئيسا من تكوينه الكيميائي، وعندما يخرج هذا النوع من الماء على هيئة عيون أو ينابيع، باردة أو ساخنة، يكون هذا الماء ذات طابع مخصوص يعرف بالماء الكبريتي أو المعدني، لما يحويه من معادن، =

وحتى لا يبسط المداد – كعادته – أبحره، يكتفى بما يلبي نداء الورقة البحثية من أهم مؤهلات العين الباردة لتكون أصلا دوائيا قرآنيا، يحتذى به في منظومة الاستشفاء الدوائي التجريبي، ولعل أشهر هذه المؤهلات هي:

⇦ استخدام العيون والينابيع بأنواعها لعلاج العديد من المشاكل العضوية والنفسية، وذلك بما يحويه الماء البارد – خاصة – من مركبات لتحسين الجهاز الحركي، والمساعدة على الاسترخاء.

⇦ علاج للأمراض الصدرية، والحمى، ووظائف الكلى، والعديد من الأمراض الجلدية، وبعض أمراض الجهاز البولي، والتناسلي.

إلى غير ذلك من عشرات الأمراض التي تنهض لها مياه العيون الباردة، عبر طرق متعددة، وكيفيات مختلفة، كل حسب حالته وعلته.

♦ وبعدُ،،، فهذه الثلاثية الدوائية التي أوردتها منظومة الشفاء الحسي/ الدوائي في القرآن الكريم، تخبرنا إفصاحا عن ضرورة طلب الدواء المناسب لكل داء، حسب التجربة الدوائية الفعالة، وكذا ضرورة العناية التجانسية بين مركبات الأدوية، وبين جزئياتها، وكذا لزومية البدء بالأقرب إلى الطبيعة – قدر المستطاع الطبي – وكل بالنهاية حسب الحالة والعلة كما قرر، وهذا الإفصاح محاولة استنطاقية للفكر الحضاري في الكتاب الجليل.

=

ويعزى إلى هذا الخليط الفوائد العلاجية الكامنة في العين أو النبع وقد عد بالعالم مئات العيون الباردة والساخنة التي يقصدها الناس من شتى بقاع الأرض طلبا لهذا النوع من العلاج الطبيعي الفعال، حتى صار هذا النوع يطلق عليه: السياحة العلاجية، وكان لمصر الحظ الوافر من هذه النوعية الدوائية، من قديم الزمان، إلى يوم الناس هذا، وقد صممت العديد من المراكز الاستشفائية حول الكثير من هذه العيون الدوائية، وما مركز حلون ببعيد عن العين.

ولعل أشهر العيون المقصودة للدواء في العالم على سبيل المثال فقط:

⇦ عين حلوان الكبريتية: تفيد طبيا في امراض الروماتيزم، والكبد، والكلى، والصدر في مرحلته الأولى والثانية.

⇦ ماء شاتلجيون بفرنسا: تخرج من حوالي ٢٨ ينبوعا، وتفيد طبيا أمراض الكبد، والمستقيم، والحمى، وغيرهما الكثير، حتى عد بمنطقة الواحات البحرية بمصر وحدها ٤٠٠ عين ما بين باردة وساخنة.

والخلاصة أن العلاج بالماء أصل طبي، له فوائده الكثيرة، كل بطريقة معينة ووسيلة مختلفة عبر منظومة الطب التجريبي قديما وحديثا.

ولعلي أكتفي بهذا القدر حول الثلاثية الدوائية في منظومة الشفاء الدوائي، رغم تزاحم فيوضات النص وعطاءاته للعقل والقلب، ولكن لقانون الورقة نعرج الآن إلى فرع ثان من فروع منظومة الشفاء في القرآن الكريم.

ثانيا ما تطالعنا به تلك السردية الدوائية، حديثها عن منظومة الطب الاستباقي في القرآن الكريم.

فمن أجل وأبرز صور منظومة الشفاء في النص الكريم، اتقاء سبب المرض، ومحاولة النجاة من التعرض له، وهو ما عرف بـ: الطب الوقائي(١).

على عتبة انتشار العديد من الأمراض والأوبئة في جنبات هذه المعمورة، كان لزاما على المنظومة العلاجية في العالم أن تسبق المرض بخطوة، للحد من الإصابات حول العالم، والنجاة من خطر المرض وتبعاته.

وكانت هذه الخطوة الاستباقية، هي ما عرف في منظمات الصحة بالطب/ الاستشفاء الوقائي، الذي له مئات الصورة المتعددة في تاريخه وحاضره حول العالم.

ومن أشهرها مثالا: اللقاحات والأمصال الاستباقية، الحجر الصحي، تنقية البيئة من أسباب العدوى، البسترة، إبادة الحشرات الناقلة... إلخ من عشرات الخطوات الاستباقية في عالم الاستشفاء الوقائي بمستوياته المتعددة(١).

---

(١) الطب الوقائي: فرع من فروع الطب الأساسية، ويتبع فرع الطب المجتمعي، ويعنى به: الإجراءات والتدابير الاستباقية، وذلك في سبيل الوقاية من خطر الإصابة بالأمراض، في محاولة المحافظة على الفرد والمجتمع في أحسن حالاته الصحية، وترجع أهمية هذا النوع من الطب، نظرا لخطوته الاستباقية، في رفع مستوى صحة الفرد والمجتمع، كذلك الحد من فواتير المنظومة العلاجية والدوائر الصحية، مما جعل العديد من الدول – سيما عند المخاطر الكبرى – إلى تطبيق هذه المنظومة الاستباقية، من أجل تحقيق الأمن الصحي والاقتصادي. ينظر تفصيلا: الطب الوقائي في الإسلام، د: أحمد شوقي الفنجري (ص١١– ١٥)، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، د: عبد الحميد القضاة، (ص٥).

https://cutt.us/dgiAH– https://cutt.us/HAM4Uhttps://cutt.us/Vt2wG–

وقد آثرت تسميته هنا بالطب الاستباقي دون الوقائي، لأن الطب الوقائي إنما ماهية تصرفه في الحد من انتشار مرض ما، أو على الأكثر محاولة نجاة مجتمع من مرض ما لم يصل بعد إليه، فمصاديقه في حقل المرض، أما القرآن الكريم فقد سبق هذا كله بخطوة رئيسة، وهو منع حدوث المرض أصلا، بطريقة سد مسده، والنجاة من سبله، فلما يوجد مرض بعدُ، ومع ذلك القرآن الكريم أدار منظومته الاستباقية (الوقائية) لمنعه، وحماية البدن قبلُ.

والقرآن الكريم باعتباريته النفعية لعالم البشر، ولعمارة هذا الكوكب، قد مارس تأكيدا – نصا ومضمونا ومفهوما – على أن الوقاية خير من العلاج، المبدأ الاستشفائي الأشهر، فأعطى الكتاب الحكيم الكثير من الدواء الاستباقي للعديد من الأمراض المنتشرة، كالأمراض الوبائية، والجنسية، فضلا عن النفسية، والروحية.

ولعل الكلمات القادمات تفي بالمحاولة الاستقرائية – تبعا لقانون الورقة البحثية وسلطان منهجها – لأبرز معالم هذا النوع الاستشفائي، عبر سردية المنظومة الشفائية الكلية في القرآن الكريم.

ﷺ **الصحة البيئية:** ومن أشهر مفردات هذا المعلَم، النظافة الشخصية، ونظافة الملبس، والمأكل، والمشرب، والمسكن، والبيئة المحيطة.

ﷺ **الصحة الغذائية:** فلا يكن القصد هو الشره، إنما القدر والفائدة، كذا حرمة الإسراف والطغيان في المأكل والمشرب، فهذا يتعدى النفع إلى الضر، كذا الامتثال للجانب التشريعي في المحرمات الغذائية، التي ما حرمت إلا لعظيم أضرارها المرضية على الصحة.

ﷺ **الصحة الجنسية:** ومن أشهر مفرداته، محاولة المعرفة الكفائية بالجانب الجنسي الذي فطر الله – تعالى – الخلق عليه، حتى لا يضل النشء في مسالك الإباحيات المحرمات، فيدرك مفردات هذا الجانب حسب مراحله، كذا الامتثال للجانب التشريعي من فروض شرعية مصاحبة، أو لاحقة، وكذا المحرمات المصاحبة أو اللاحقة، فضلا الامتثال للتحريم الكلي للزنا وطرقه، واللواط، والشذوذ.. إلخ مما ثبتت أضراره الجمة على الصحة كليا.

ﷺ **الصحة الروحية والعقلية:** ومن أشهر مفرداته، مراعاة التوجيه الإلهي في أمور الإيمان بالله ﷻ وأقداره، وما يلزم ذلك من حرمة الظلم والانتحار والعنف وجميع الأسباب الجالبة للهموم أو التوتر الفردي

=

(١) تنظر مراجع الحاشية السابقة.

والمجتمعي.. إلخ، والظلم الصريح في حق من جلب ذلك على أخيه، وضرورة مراعاة ذلك كالنسيج الواحد.

ᔕ **الصحة الإنجابية:** ومن أشهر مفرداته، الرعاية الأسرية والمجتمعية للأم عبر فتراتها المختلفة، من حمل ورضاع ورعاية، وكذا تهيئة المناخ العام للتربية الصحية، ولوازم ذلك على الأبوين، فضلا عن الإشارات الضمنية لحقوق الطفل والأم، وفق منظومة الأسرة التي أصلها النص، قبل المنظمات الدولية بقرون.

ᔕ **برتوكول العدوى:** ومن أشهر مفرداته، عزل المريض بالوباء، فلا يُدخل إليه، ولا يُخرج منه، وهو ما يعرف بالحجر الصحي، وكذا محاولة استئصال أسباب العدوى، معنويا وماديا.

إلى غير ذلك من معالم متعددة، أظهرتها منظومة الطب الوقائي، وسردتها أدبيات المراكز الصحية حول العالم، وقد أشارت إليها قبلُ سردية الطب الوقائي في النص الشريف من كتاب وسنة.

وهذا يشعرنا – وفق النظرة التدبرية – أن نصوص الكتاب الحكيم لازالت بكرا، تحتاج إلى استنطاقها المتعدد، عبر الأزمنة والأمكنة، فآيات معدودات، أصلت ومارست منظومة تجريبية كلية، لم يُتوصل إلى مضامينها إلا منذ عقود قليلة.

ولعل الله – تعالى – ينعم بنافلة عافية وزمان، لإفراد المنظومة الطبية الكلية بمؤلف كامل – تأصيلا وتنظيرا – عبر محاميل الكتاب الجليل والسنة الشريفة، يتسع فيه القرطاس، ويتمدد فيه المداد، لأظهر فيه بعض ما أبهر العقل والقلب من أنوار وإعجاز هذه المحاميل المقدسة.

وبعد هذه الأصول الموجزة من معالم منظومة الطب الوقائي، لزم – لحق البيان – أن تشفع بعض فروعها بمصاديق دليلية ودلالية من النص الحكيم(١).

(١) استفيدت هذه المصاديق من الاستقراء التام لـ: الإعجاز الطبي في القرآن، د: السيد الجميلي، الطب الوقائي في الإسلام، د: أحمد شوقي الفنجري، تفوق الطب الوقائي في الإسلام، د: عبد الحميد القضاة، الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، د: جمعة سمين قادر (م/٧، ع/٣).

١- الحد من الإسراف في المأكل والمشرب: بدهي تلك العلاقة الطردية بين كمية المأكل والمشرب، وبين النسب الدقيقة التي يحتاجها جسد الإنسان، فأي كمية زائدة (إسرافا) عن الحاجة، حتما هي السبيل إلى المرض الأشهر عالميا، البدانة (السمنة)، فضلا عن الأمراض المتعددة الناتجة عنها[١].

ولا ريب صدق الكتاب الحكيم في هذا الاستشفاء الاستباقي في قوله ﷻ: "﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾"[٢]، وقوله ﷻ: "﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾"[٣].

٢- مطلق الأمر بالطهارة: من أهم الفوائد الصحية للوقاية من العديد من الأمراض، وقد حرص الكتاب الحكيم على التلازمية بين الطهارة – بصورها المختلفة – والعديد من التكاليف الشرعية، فالفرضية قبل كل صلاة، وكذا بعد الجماع، وعقب الأعذار الشرعية، هذا بخلاف الدعوة العامة للنظافة الذاتية والعامة.

هذ كله يجعل من الإنسان في كل أوقاته وأحواله، محصنا من أدران وآثار الجراثيم والمخالطات اليومية، فضلا عن النظافة الدائمة من الأتربة والروائح والعوالق التي تفسد جلده وأغواره.

ومصاديق هذا تمثيلا، قوله ﷻ: "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾"[٤]، "﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾"[٥]، "﴿ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴾"[١].

---

(١) السمنة هي: زيادة غير طبيعية في دهون الجسم، تحدث بسبب زيادة الغذاء عن احتياجات الجسم، وعد من الأمراض الناتجة عنها: الدهون في الدم، مرض السكري، مرض الضغط، اضطراب النفس.. إلخ. ينظر: الموسوعة المصرية لتغذية الإنسان، يوسف كامل (ص٢٩).

(٢) الأعراف: من الآية ٣١.

(٣) طه: الآية ٨١.

(٤) المائدة: من الآية ٦.

(٥) الأعراف: من الآية ٣١.

٣. ماهية المأكول والمشروب: بدهي أن الغذاء هو السبيل الأول لبقاء الإنسان، وأنه السبب الأول للصحة أو المرض ، فإن أكل الانسان ما به النفع لبدنه، عاد ذلك على أجهزته وبنيانه، وإن أكل ما به ضرر، تسب في مرضه.

علاقة مطردة، لذلك حرم القرآن الكريم في غير آية بعض المأكولات والمشروبات، لحصول المرض الآكد عند تناولها والتغذي عليها.

ومصداق ذلك قوله ﷻ: "﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ .. الآية﴾"(٢)، وكذا الآيات التي خرجت عبر نفس النسقية والملمح(٣).

- فالحيوانات التي أصابها أي شكل من أشكال الموت – عدا التذكية الشرعية – يحرم التغذي عليها، لأن جسد الحيوان حينئذ – بتوقف الدورة الدموية – يصبح بيئة غنية بكل أشكال الجراثيم والأوبئة، فضلا عن أنسجته المتحللة التي أصابها العفن، وكلها من أسباب نقل العدوى الجرثومية الشديدة.
- كذلك الدم الذي حرمه الله ﷻ فهو يحوي اليوريا وحامض اليوريك والكرياتينين وغاز ثاني أكسيد الكربون، وهذه المجموعة تصنف ضمن السموم والفضلات.
- وأما الخنزير الذي حرمه الله ﷻ فهو أشهر من أن يُنص على قذارته، فهو آكل للجيف والفضلات، والمخلفات، ولذلك فجسده بيئة خصبة للجراثيم والطفيليات الخطرة على جسد الإنسان، وهذا ما أثبتته التجربة المعملية.

ومن أشهر هذه الطفليليات دودة الخنزير الشريطية المعروفة، وتنتقل عن طريق الدورة الدموية إلى مختلف أجزاء الجسم، وتسبب العديد من الأمراض، إضافة إلى ما تسببه نسب الأحماض الموجودة بجسده.

=

(١) التوبة: من الآية ١٠٨.

(٢) المائدة: من الآية ٣.

(٣) ينظر الملمح الطبي لهذه المحرمات في: الإعجاز الطبي، د: الجميلي (ص١١٥ وما بعدها)، الإعجاز الطبي، سعيد صلاح الفيومي (ص٤٥)، الإعجاز الطبي، د: جمعة قادر (ص٤).

♦ كذا تذكية الحيوان المأكول، وهي طريقة الذبح الشرعية، هي أصح الطرق الموصلة إلى لحم طيب خالي من الجراثيم والأمراض تماما، لأن جسد الحيوان يتخلص – عن طريقها – من كل الدماء تماما، وبالتبعية يتخلص اللحم من أكبر بيئة خصبة للجراثيم، فيأكله الإنسان هنيئا مريئا.

♦ كذلك من المنظومة الاستباقية في النص الحكيم، في ماهية المشروب، تحريم الخمر، بقوله– تعالى– : "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾"(١).

لا تكاد تجد أدبية من الأدبيات التي تناولت شيئا عن الخمر، إلا واستفاضت في الآثار النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، فضلا عن الآثار الصحية التي تحدثت عنها المؤسسات الطبية، بله الأدبيات العلمية، والدينية(٢).

فثبت طبيا أثرها على الجهاز الهضمي، فتسبب بعض أمراض الكبد، وبعض أنواع السرطان، وكذا تلف عضلة القلب، وهو ما يعرف بـ: اعتلال عضلة القلب الكحولي، وكذا أثرها المشهور على أجزاء الدماغ والأعصاب.

٤. الامتثال للنهي في العلاقة الجنسية: الجنس أحد الغرائز الثلاث(٣) التي بني عليها هذا الإنسان، الذي هو بنيان هذه المعمورة، بدونه تتحول هذه المعمورة إلى التشوهات النفسية والخلقية، فضلا عن فنائها بالكلية.

والإسلام – بكماليه الكتاب والسنة – لم يكن بمعزل عن تلك الحقيقة الإنسانية الخالصة، فأسس عبر عشرات النصوص، ومئات الأدبيات، نظما وأطرا لتهيئة وتقنين وتمرير هذه الغريزة الرئيسة عبر قناتها الصحيحة.

(١) المائدة: من الآية ٩٠.

(٢) ينظر بعض ذلك في: الإعجاز الطبي، د: الجميلي (ص١١٧ وما بعدها)، أضواء على المحرمات الإسلامية، طارق محمد علي (ص٢١ وما بعدها).

(٣) منذ وجود الإنسان على هذه الأرض، وهو يحتاج إلى غرائز ثلاث رئيسة: الطعام، والسلامة، والجنس، والحقيقة أن غريزة الجنس، تكاد تكون المتحكمة في كل الغرائز وطبيعتها. ينظر: الطب الوقائي في الإسلام، د: الفنجري (ص١١٠ بتصرف).

ولسنا هنا – بطبيعة الحال – للحديث عن المنظومة الجنسية في المنظور الإسلامي، إنما فقط الإشارة المعنية بالاستشفاء الاستباقي عبر سردية النص الحكيم، ببيان نذر من التوجيه الإلهي في أمر العلاقة الجنسية، للمحافظة على صحة الإنسان، والنجاة به عن دائرة الأمراض(١).

- من أبرز المنهيات العلاقة الجنسية بين الزوجين وقت فترة الحيض، وهذا مصداقه قوله – تعالى –: "﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾"(٢).

توجيه إلهي جليل، باعتزال العلاقة الحميمية بين الزوج والزوجة فترة الحيض، لما فيها حينئذ من أضرار عبر عنها الكتاب الحكيم بقوله "أذى".

فثبت أن الجهاز التناسلي عند المرأة يكون في حالة احتقان، فقد يؤدي الجماع حينئذ إلى التهابات متعددة في أجزاء الجهاز التناسلي، بخلاف ما يصيب الذكر من التهابات في المثانة والبروستاتا، كذلك تعرض الطرفين إلى الإصابة بالعدوى الجنسية حينئذ، لأن المقاومة للعدوى حينها في مرحلة صفر.

- كذلك التحريم الدائم عبر التاريخ، والشؤم الأبرز على أي مجتمع (الزنا)، قال الله ﷻ: "﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾"(٣).

غير خفي ما لهذا الجرم من آثار نفسية واجتماعية وصحية واقتصادية على أي مجتمع يحل به هذا الداء، غير أنه للوفاء بحق هذه السطور، سيكتفى ببعض الأثر الصحي الناجم عن هذا الخبث، ليظهر من هذا البعض، كيف أسست المنظومة الشفائية في الكتاب الحكيم لهذا الطب الوقائي/ الاستباقي.

---

(١) ينظر الملمح الطبي لهذا التوجيه في: الإعجاز الطبي، د: الجميلي (ص١٢٣، ٢٣٤)، أضواء على المحرمات، طارق محمد علي (ص٢٦).
https://cutt.us/lOlwe

(٢) البقرة: الآية ٢٢٢.

(٣) الإسراء: الآية ٣٢.

ثبت طبيا أن هذا الفعل الخبيث يسبب المرض الأخبث في العالم: الإيدز، وكذا أمراض الزهري والسيلان، وما يلحقهما من تصلب الشرايين، والذبحة الصدرية، والضمور العضلي والوراثي، والتهاب الجهاز التناسلي(١).

إلى غير ذلك من التوجيهات الإلهية التي سردتها منظومة الاستشفاء الاستباقي، كالآثار الاستباقية المترتبة على مضامين الحمل والوضع والرضاعة، ناهيك عن منظومة الأطعمة والأشربة في الكتاب الحكيم، وخصائص كل طعام أو شراب غذاء ودواء، كذلك منظومة الطب الشرعي، من السوابق الفرائد التي أشار إليها الكتاب الجليل عبر منظومة الطب(٢)، كذا منظومة العبادات في النص الحكيم، فقد تناولتها الأدبيات الطبية، وما يترتب عليها من خصائص دوائية أو وقائية.

وليس بخفي أن هذا كله بعض منظومة الشفاء في القرآن الكريم فقط، فإذا وجه طرف المداد ناحية السنة النبوية، فهذا يحتاج إلى أبحر مدادا للأقلام ليفي بالمنظومة الطبية في السنة النبوية.

❁❁❁

وبعد هذه المعايشة السريعة لبعض معالم منظومة الشفاء الحسي/ الدوائي في النص الشريف، تعرج الآن الورقة البحثية إلى قسيم المنظومة الشفائية الثاني:

(١) وكذا لا يغيب عن كل ناظر ما للمثلية، وما يدور في فلكها من أضرار صحية جمة، وجوائح عالمية عجزت أمامها البشرية، وحارت فيها المحافل الصحية عبر ربوع المعمورة.

(٢) من جليل النظرة التدبرية الاستنطاقية للنصوص، ما تحمله قصة يوسف عليه السلام من محامل في مجموعة البراهين المتعددة، بدءا من قضية الذئب، وكذا ملمح القميص.. إلخ، من أسس معملية وجنائية ودِلّية للوصول إلى المجهول، الذي هو عين منظومة الطب الشرعي الحديث.

قسيم الثنائية الثاني: "الشفاء المعنوي/ الدعاء[١] عبر الرؤية القرآنية":

حرص القرآن الحكيم على خطاب المجتمعات المختلفة بخصائصه الكلية الكمالية – التي لا تنفك تعجز أمامها العقول والحضارات – وكان من أبرز تلك الخصائص الرئيسة، خاصية الاستشفاء الكامنة فيه.

الاستشفاء بالقرآن الكريم، تلك الخاصية المعنوية الملازمة للكتاب الجليل، فيستشفى بألفاظه وتوجيهه، بحرفه وخطابه، حسيا ببعض نصه، ومعنويا بكل آياته.

وقد جاء ذلك تصريحا عبر سردية شريفة، بدأت بقوله ﷻ: "﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾"[٢]، وقوله: "﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾"[٣]، ثم ختمت بقوله: "﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ ﴾"[٤].

غير أن النظرة التدبرية لهذه الثلاثية المقدسة، اختلفت ضمنيا في وصفية هذا الشفاء، أحقيق هذا الشفاء، أم على مائدة المجاز؟ هل هو للأبدان والروح معا، فيشمل الأمراض العضوية والنفسية، أو للروح فقط؟ وإذا كان كذلك، فكيف حينئذ؟

والظاهر من الدرس التفسيري أن شفاء القرآن الكريم حقيقي للمؤمن بهذا الدواء، في شأن الأمراض القلبية أصالة وبدءا، كالجهالة، والريب، والنفاق.. إلخ من الأمراض الخُلُقية والاجتماعية.

---

(١) بدهية تلك النظرة الإدراكية لاتساع مصطلح المعنوي/الدعاء هنا عن الحرفية الاصطلاحية، ليشمل عمومية المضمون، فالقصد من هذه الكلمة مطلق صور الاستشفاء الماورائي، بأي شكل من أشكال اللجوء إلى الله ﷻ دون تدخل عنصر السببية – كمطلق القرآن الكريم، والاستعاذة، والدعاء، والرقى، والإيمانيات المنجية – ليقابل مطلق صور الاستشفاء الدوائي الحسي، فالمقابلة المُطلَقية لا الحرفية.

(٢) يونس: الآية ٥٧.

(٣) الإسراء: الآية ٨٢.

(٤) فصلت: الآية ٤٤.

كذلك في شأن الأمراض العضوية والنفسانية، إما على الحقيقة والتأثير، وإما على حتمية طلب الاستشفاء والدواء، فيكون شفاء للأمراض الظاهرية والباطنية[١].

وحتى تتبين خاصية الشفاء في القرآن الكريم، حقيقة ومدى، وطبيعة المنظومة الناتجة عن هذا الاستشفاء المعنوي، كانت هذه السطور التالية:

⇦ إضاءات كشفية:

الإضاءة الأولى: حقيقة الشفاء بالقرآن الكريم: القرآن الكريم شفاء للمؤمنين من جميع الأمراض القلبية، بلا استثناء، وكذا بعض العضوية، وذلك للآتي:

١. الذي استظهره الدرس التفسيري أن "من" في قوله: "من القرآن" بيانية، لبيان أن القرآن كله شفاء، لا أن بعضه فقط، فهي صفة لكل آياته الشريفة.
٢. مطلقية كلمة "شفاء" في الثلاثية الشريفة للمؤمنين، دون قيد أو تخصيص، دليل على عمومية الشفاء للأمراض العضوية، والروحية، والقلبية[٢].
٣. منظمة الصحة العالمية في دستورها المؤسس عام ١٩٤٨م، عرفت الصحة بأنها: "حالة من المعافاة الكاملة بدنيا وعقليا ونفسيا واجتماعيا، لا مجرد انعدام المرض أو العجز"[٣]. هذا التعريف الذي وضعه المؤسسون لمفهوم الصحة، يؤكد على أهمية البعد النفسي في عملية الشفاء، جنبا إلى جنب للبعد الفسيولوجي.

حتى أصبح من البدهيات الطبية، ارتباط البعدين – الروحي والعضوي – لإتمام عملية الاستشفاء[٤].

كل هذا وغيره – خشية الإطالة – يؤكد شمولية الشفاء القرآني للأمراض العضوية/ الظاهرية، كما شفاؤه للأمراض القلبية/ الباطنية.

---

(١) ينظر: البسيط للواحدي (٤٥٣/١٣)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤٨٠/٣)، التفسير الكبير للرازي (٣٨٩/٢١)، محاسن التأويل للقاسمي (٤٩٧/٦)، التحرير والتنوير للطاهر (١٩٠/١٥).

(٢) تنظر مراجع الحاشية السابقة.

(٣) ينظر: علم الأوبئة، رودولفو سارانتشي (ص٢٣).

(٤) المرجع السابق.

الإضاءة الثانية: مديات الاستشفاء بالقرآن الكريم: امتد الشفاء القرآني – كما قرر – ليشمل الأمراض القلبية، والنفسانية، والعضوية، فجميع الأمراض الشبهية، والشهوانية[١] – التي محل وقودها ومنبت شجرتها هو القلب – مرد شفائها، بله الوقاية منها هو القرآن الكريم، وهذا عين الوصف القرآني في الثلاثية الشريفة[٢].

موعظة وهدى ورحمة، كليات كمالية وصفية لهذا الكتاب الأجل، جعلها الله ﷻ خصائص كامنة فيه ومنه، ثم زُينت وتوجت برابعتها، ألا وهي: "الشفاء".

والشفاء في حد ذاته تقابلية للمرض، فخاصية الشفاء هذه تطهير للمؤمن به من الأمراض الفكرية والأخلاقية، الشبهية والشهوانية، الفردية والمجتمعية[٣].

---

(١) سبق ذلك تفصيلا في المبحث الأول: المرض في القرآن الكريم.

(٢) يونس: الآية ٥٧. الإسراء: الآية ٨٢. فصلت: الآية ٤٤.

(٣) والقصد التدبري هنا: الجهاز الاستقبالي لأنوار السماء، الذي هو القلب في المقام الأول، يعود أمر استجابته لشفاء القرآن الكريم إلى قوة استجابة أجهزة استشعاراته وتفاعلها مع موجات القرآن الكريم، من عدمها، فالمرض الأخلاقي "القلبي" كالعضوي تماما، يحتاج إلى طبيب ودواء ووقاية، وكذا يشترط أن يكون الدواء مناسبا لتلك الحالة المرضية، وهذا لن يتأتى إلا من خبرة الطبيب وصلاحية الدواء وتناسب أجهزة الجسم مع هذا الدواء، حينئذ يأتي الدواء دوره، ويشفى المريض بإذن الله، كذلك الحال في القرآن الكريم، فالرب ﷻ أعرف بما يصلح الإنسان ظاهرا وباطنا، لأنه خالقه، وكذا القرآن الكريم هو الوصفة الدوائية الناجعة، بقى الجهاز الذي يستجيب ويناغم مع هذا الدواء، فالقرآن الكريم وصفة شفائية من الأمراض الشبهية والشهوانية، لمن؟ للمؤمن الذي يستجيب، الذي يصدق ويمتثل،، الذي يريد أن ينتصر على ضعفه، الذي يريد أن يعالج أمره الظاهري والباطني، حينئذ تتكامل المنظومة الشفائية، من طبيب ودواء ووقاية، فيكون الشفاء حتما وحقا، أما مَن وجوده قائم على صناعة المرض – من الأخلاط الشبهية والشهوانية – وتفشيه وانتشاره، مَن سوقه يزدهر بكثرة المرضى، مَن بضاعته الدواء الفاسد، حينئذ يكون ضد هذه الدعوة الاستشفائية من القرآن الكريم، ويغلق كل منافذ أجهزته، ويرفض كل نداءاته، فيختم على قلبه، ولا يكون إلا الخسار. قال الله ﷻ: "﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾" . [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، ويقول ﷻ: "﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾" . [الأعراف: ٥٨].

شفاء لكل ما في الصدور من تلوثات شبهية، كالبخل والنفاق والحسد والجبن والشرك والحقد وسوء المعتقد.. إلخ، وكذا شهوانية من حب الدنيا والمادة والشهوة، مما تتحكم في الإنسان، وتجعله أسيرا لها.

ولم يكن القرآن الكريم شفاء لكل هذه الأمراض، إنما ضم خصيصة أخرى، وهي فاعلية دور النقاهة والعافية، مرحلة "الهدى والرحمة"، وهي تكوين خلايا إيمانية جديدة، وتبديل لكل هذه السوابق التلوثية بأخرى نافعة روحانية.

تكفى محاولات قليلة في تمرين الإنسان على تفعيل دور القرآن الكريم في حياته، إلا وتظهر آثار هذا الشفاء على جوارحه قبل قلبه وروحه.

وكون القرآن الكريم محكوما له بصفة الشفاء، مثبتة له وفيه، يستلزم أن يكون هذا الكتاب تبيانا لكل شيء، فما من شيء يحيك بالصدر، إلا والقرآن الكريم فيه الدواء له والشفاء التام، وأدلة ذلك أظهر من أنها تحويها سطور هنا أو هناك[1].

الإضاءة الثالثة: ثبوتية الاستشفاء المعنوي بالقرآن الكريم: قرر أن القرآن الكريم شفاء لكل الأمراض القلبية – الشبهية والشهوانية – بما حواه بيانا وتبيانا لكل شيء يخالط ويخالج النفس الإنسانية.

كذلك ثبتت تلك الخاصية الاستشفائية الكامنة فيه لبعض الأمراض العضوية والنفسانية – شفاء معنويا – وهو ما عرف بالرُقى الشرعية.

والرقية هي: "ألفاظ خاصة يحدث بسببها الشفاء من الأمراض، والأسباب المهلكة، وتكون من القرآن الكريم، أو السنة النبوية، يتلفظ بها المريض، أو يرقى بها، وتكون من العين، واللدغة، والسحر، والسم، والألم، والمرض، والهم، والغم، والمس، والجنون، والفزع، والصرع، وغير ذلك"[2].

(١) ينظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٢٦٣/٢)، معالم التنزيل للبغوي (١٣٨/٤)، زاد المسير لابن الجوزي (٣٣٥/٢)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٥٣/٨)، أنوار التنزيل للبغوي (١١٦/٣)، روح المعاني للآلوسي (١٣٢/٦)، محاسن التأويل للقاسمي (٣٥/٦).

(٢) ينظر: تهذيب الفروق والقواعد السنية للقرافي (٣٢٨/١)، معجم لغة الفقهاء لقلعجي (ص٢٢٦)، العلاج النفسي د. طارق الحبيب (ص٥٥).

وقد توافرت الأدبيات قديما وحديثا، عبر الحضارات، حديثا وتفصيلا عن الرقى، فهي من الفنون الطبية التي تضرب بجذورها في أعماق التاريخ(١).

وليست الرقية الشرعية/ القرآنية ببعيدة عن هذا المقام – إن صحت المقارنة – كمنظومة دوائية معنوية، فقد جمعت حولها المؤلفات تترا عن مشروعيتها، وأدلتها من الكتاب والسنة، وأنواعها، وشرائطها، وأحكامها، وآثارها، وحدودها، وألفاظها، ومواطنها، وهارمونيتها (منابع طاقاتها)... إلخ، مما أجهزت عليه دواوين الطب النفسي، فضلا عن الدواوين الشرعية(٢).

وطبيعة الحال أن هذه الورقة البحثية ليست مرصدا لهذا الكم المعرفي حول الرقى القرآنية وأثرها الشفائي للأمراض العضوية والنفسانية(٣)، فهي أشهر من أن ينص عليها في هذا المقام المختصر.

---

(١) ينظر: الطب النفسي المعاصر، د. أحمد عكاشة (ص١٥– ١٨)، لمحة موجزة عن تاريخ الطب النفسي، د. طارق الحبيب (ص٣٩).

(٢) من أفضل الدراسات عن الرقى طبيا وشرعيا: دراسة د. طارق الحبيب في موسوعته العلاج النفسي والعلاج بالقرآن (ص٥٣ – ٣٤٧)، فقد كفى وزيادة.

(٣) الطب النفساني في القرآن الكريم: حوت منظومة الشفاء في القرآن الكريم معاجز مبهرة، وأصولا مرشدة، جعلت من نفسها شامة زاحمت معارف الطب في بواكرها، وحاضرها.

وكان من أجل وأعمق هذه المعاجز، معالم الطب النفساني في القرآن الكريم، كإجراء شفائي – نصا ومضمونا – للأمراض النفسية والعصبية، عبر مراحلها المختلفة.

والمرض النفسي في مجمله هو: اضطراب وظيفي في الشخصية الإنسانية، نفسي المنشأ، ويؤثر في سلوك الإنسان، فيعيق توافقه النفسي والمجتمعي.

وقد قسم المرض النفسي طبيا إلى قسمين – استطاعت منظومة الشفاء المعنوي في القرآن الكريم أن تشملهما، وتخرج بهما من حالة المرض إلى حالة الاستشفاء –: أحدهما: الأمراض الذهنية: وهي تلك الأمراض التي تؤثر في عقل الإنسان، فيفقد معها حسن تصرفه في الأمور العامة والخاصة، ويحدث معها أعراض لم تعهد عليه قبل، كالهوس، والوسواس، والفصام، وغيرهم. ثانيهما: الأمراض العصبية: وهي تلك الأمراض التي لا تؤثر على عقل الإنسان ولا تصرفاته، إنما اضرابات نفسية شعورية، قد تؤدي إلى بعض الأعراض الجسمانية، فضلا عن العزلة والحزن الشديد. ينظر: العلاج النفسي، د. الحبيب (٧٥ – ٨١، ٣٧٤) بتصرف.

فغاية المرض النفسي بشقيه هو: نسبة التوافقية وعدمها بين الإنسان ومشاعره، وعواطفه، وتناوله الحسي والفكري وسلوكه الشخصي والمجتمعي.

ودواء هذا النوع المرضي هو مدى قدرة الإنسان على التحكم في تلك الأفكار والعواطف والسلوكيات.. إلخ، عن طريق تدريب المريض على اكتشاف أبعاده النفسية، وأفكاره العقلية الصالح منها والفاسد، وكذا التدريب على مدى القدرة التصحيحية أو التوجيهية.

=

الإضاءة الأخيرة: في مثل هذه السياقات تلزمنا الضرورة العلمية والمعاشية، للإشارة إلى أن القرآن الكريم، وإن كان سببا ناجعا في الاستشفاء به بدنيا وعضويا، إلا أن القرآن الكريم ذاته لم يكتف بقدسيته في التدواي المعنوي فقط، بل أرشد إلى الدواء الحسي أيضا، والسعي إلى تحصيله وفهمه(١).

وبالنهاية: القرآن الكريم هو الشفاء من جميع الأمراض القلبية والنفسانية، وكذا العضوية، وإنما يحصل هذا الشفاء لمن صدق وآمن، واعتقد وقَبِل، لا لمن عارض واعترض، ولكن كيف يحصل؟ هذا ما ستظهره السطور القادمة محط المبحث التالي. ←

❁❁❁❁❁

=

وقد استطاع القرآن الكريم عبر عشرات الآيات، وعديد المواقف أن يسرد علينا منظومته الشفائية لجل الأمراض النفسية، من خلال التعامل المباشر مع منظومة العواطف والمشاعر الإنسانية – التي تعد بالآلاف – بالتقابلية الفكرية، والبديل النظير، وتصحيح الرؤية والمسار والهدف، فشعور إنساني يقابله تصحيح قرآني، وعاطفة قلبية يزاحمها تقنين قرآني.

فضلا عن التوجه القرآني المباشر نحو الخطرين الأكبرين (الخوف والحزن) اللذين ينتج عنها المرضان الأكبران في تاريخ الطب النفسي قاطبة: (القلق والاكتئاب).

فالخوف مما هو آت، يورث القلق، والحزن مما وقع أو هو واقع، يورث الاكتئاب، لذلك عالج الله ﷻ هذا المرض الأخطر، بسد مسده، و تصحيح سبله، ونفى عن من امتثل منظومة القرآن الكريم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وقد كنت أفردت هذه المنظومة بالاستقصاء والتمثيل، عبر وقفة تدبرية مستفيضة لجزء من قصة نبي الله (يعقوب)ﷺ في مرضه النفساني الذي ترتب عليه أثر عضوي، وكيف أسست هذه الفقرة من قصته ﷺ لمنظومة الطب النفساني كله من خلال قاموسها النفساني المعجز، وقد أسميتها "كيف تدير المشاعر؟".

غير أن قانون الورقة البحثية الأكاديمية، ألجأ هذه الوقفة التدبرية إلى مائدة الإشارة دون العبارة، والوجازة دون الإفاضة، إلى أن تفرد بمصنف يفي بها بنعمة الله ﷻ. ينظر تأسيسا لهذه الإشارة: العلاج النفسي في القرآن الكريم، إبراهيم النعمة (ص١٠ – ٢٨)، البيان في إعجاز القرآن، د. صلاح الخالدي (ص٣٣٣)، العلاج النفسي، د. الحبيب (ص١٥٠ – ١٧٤)، أصول علم النفس، د. أحمد عزت راجح (ص٥٧٨ – ٦٥٠)، عقل غير هادئ، كاي ردفيلد جاميسون (ص١٥٣ – ١٩٣).

(١) وهذا عين ما أشارت إليه منظومة الشفاء الحسي/ الدوائي في القرآن الكريم كما مرّ بيانه.

المبحث الثالث: "وإذا مرضت فهو يشفين"
بين التأثر والتأثير

كعادة كتاب الله – تعالى – في تقويم وتقييم التصرف الإنساني البدهي، كذلك كانت عادته الحكيمة مع الاستشفاء.

ففي ظل هيمنة السحر والكهانة المتناقلة قديما قبل الإسلام، إضافة إلى بعض ذكرى من مجربات شعبية من أعشاب وأشربة، انتهاء ببعض طرق الدواء التقليدي.

في ظل هذه البيئة نهض القرآن الكريم بتلك العقول وهاتي الممارسات، إلى الفصل بين الاستشفاء الحق، وسبله الصحيحة، وبين هذه المقلدات والموروثات.

وليس هذا وفقط – الاكتفاء بالنهوض والدعوة – بل حث في آيات كريمات إلى الاهتمام بالصحة، واللجوء إلى الدواء عند المرض، والنظافة، والطهارة، والعادات الصحية المتنوعة في المأكل والمشرب.. إلخ، عبر منظومته الدوائية والاستباقية(١).

ولخطر هذا التقويم والتقييم الإلهي، جعل القرآن الكريم الأثر الناتج عن المرض، والتأثيرية من الشفاء على الإنسان من أسس العقيدة الصحيحة، والتصور السليم.

فالله وحده الذي يستحق العبادة دون سواه، من حيثيات هذا الاستحقاق، أنه وحده الذي يملك التصرف في البشر، يملك العلاقة بين الأثر والتأثير.

ومن آثار هذه الدلالة أنه **هو وحده الذي بيده تأثير الدواء على الأثر الناتج عن المرض، فيكون الشفاء**، خلافا لتلك الأصنام العاجزة، التي لا تملك أثرا ولا تأثيرا، وحده ﷻ يشفي من الأمراض بنوعيها: البدني/ العضوي، والقلبي/ النفساني.

(١) وقد مر بيان ذلك في المبحث الثاني تفصيلا.

فقال ﷻ على لسان (إبراهيم) عليه السلام في معرض التوحيد التقابلي: "﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾"(١)، وكذا قوله ﷺ تأسيسا للأثر والتأثير بين المرض والشفاء: "أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك"(٢).

هكذا ثبت عن النبي ﷺ، وعلى نفس القَرَن من قبله أبيه (إبراهيم) عليه السلام، في إعلان تفرد الله ﷻ بتحقيق تأثير الشفاء علي أثر المرض، سواء عبر الإعجاز، أو المعنوي غير السببي، أو تفعيل السبب عن طريق الدواء.

⇦ "فهو يشفين"، "أنت الشافي": كمال الوصفية، كمال الاختصاص، كمال التفرد، كمال التعريف، فما من مرض – معنوي وعضوي – إلا وله دواء – معنوي وعضوي – يناسبه، فيزاحمه، فيحصل الشفاء المعنوي والعضوي.

لكن حصول هذا الشفاء ليس بفعل الدواء ذاته، فالمعنوي يكون بتفعيل دور النص الشفائي حسب المرض، وهو أمر إلهي، والعضوي يكون بتفعيل دور الدواء الحسي حسب المرض، وإجراء السببية كذلك أمر إلهي، فثبت تفرده ﷻ بحصول الشفاء منه وحده، لذا جاء وصف سيدنا (إبراهيم) عليه السلام في الأولين، وكذا وصف نبينا (محمد) سيد الخلق ﷺ في الآخرين.

ꕥ وبعد هذه التقدمة النصية/ المنطقية، التي شهدت بها قبلُ تلك المعايشة التدبرية الطويلة لمنظومة المرض والشفاء – بعد هذه – كانت تلك الوقفة التدبرية الأخيرة – أسأل الله النفع بها – التي تعد بمثابة اللوحة الإرشادية(٣) لمن يبتغي استجلاب هذا التأثير، وحصوله الشفائي ظاهرا وباطنا.

⇦ **بالاعتقاد والتصديق يحصل التأثير الحقيق:**

طبيعة الإنسان – جسدا وروحا – عندما تلتهمه المشكلات، وتحط به الهموم الحسية والمعنوية، لا يستطيع حينئذ بقواه المادية والعقلية الصرفة أن يتجاوز هذه المحطات التي أقعدته وأصابته.

---

(١) الشعراء: الآية ٨٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: دعاء العائد للمريض (١٢١/٧) ح رقم (٥٦٧٥).

(٣) وسأفرد بنعمة الله – تعالى هنا نوعا من الممارسة التدبرية، برهانا عمليا، من خلال معايشة تدبرية مختصرة لسردية شريفة قصها القرآن الكريم عبر منظومتي المرض والشفاء، في قدر مخصوص من قصة نبي الله (يعقوب) عليه السلام، ونبي الله (أيوب) عليه السلام، عسى أن تفي تمثيلا وبيانا.

فتكون النجاة حينها – قبل وبعد القوى المادية – أن يلجأ إلى القوى العليا، وهي عقيدته في سيده ومولاه، وتصديقه بخطابه إليه، ووعده إياه.

تلك القوى الماورائية (الإيمانية) التي تعيد له توازنه من تخبط الانهيار، وتبعيته من الانتحار(١).

وبدهي في أمر الأمراض الحسية، يبحث الإنسان عن أمهر الأطباء، وأنجع الأدوية، اعتقادا منه في تأثير هذا الدواء، وتصديقا منه لهذا الطبيب، وكلما قوي هذا الاعتقاد، وصقل هذا الإيمان، وأُعتنق هذا التصديق، كلما كان تأثير هذه القوى الحسي والمعنوي في الجسد الشاكي، والقلب المتألم.

وإذا كان هذا الحال في بعض القوى المادية، لبعض مهارة، فما البال برب القوى والقدر، والتصديق في تلازمية الحدث والسبب بيديه ﷻ.

وخير تطبيق على هذا الإجراء الرئيس – الممارسة التدبرية – دلالات قصة مرض نبي الله (يعقوب) عليه السلام، ومرض نبي الله (أيوب) عليه السلام.

ﷺ يقـــــول الله ﷻ: "﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ....﴾" الآيات(٢). ابتلي (يعقوب) عليه السلام في حبيبيه، فابتلي في حبيبتيه، فجمع عليه الألم النفسي، والمرض العضوي.

عتاب مشحون بالحزن والألم، كاد أن يتحكم بنبي الله (يعقوب) عليه السلام، مما يدل على شدة وقع المصاب على قلبه، الذي لم يبرح ينزف بعد سنوات عديدة على (يوسف) عليه السلام حِبه، ونور عينيه، حتى إنه فقدها حزنا عليه وعلى أخيه الصغير.

كاد أو قرب، إلا أنه عليه السلام استطاع عبر قوة عقيدته في مولاه، وإيمانه بصدق سيده وعلمه وحكمته ووعده ولطفه – استطاع – أن يملك زمام نفسه، ولم يتركها تتحكم بقلبه، أو تتلاعب بعقله.

سارع إلى جناب الأمل واليقين والقدرة، سارع إلى الدواء الأول، آملا ان يحدث التأثير بقلبه الممزق، فقال: "فصبر جميل".

---

(١) ينظر: أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع لعبد العال سالم مكرم، (ص٧٥) بتصرف.

(٢) يوسف: الآيات ٨٣ – ٨٧.

وما كانت هذه السرعة في طلب الدواء، محض قدرة عادية، يستطيعها الإنسان فور وقوع المصاب، إنما تحصل عبر فترات طويلة بالاعتقاد والتصديق.

صبر جميل، صبر يحمل بين طياته الرضا عن الرب، عن القدر، عن الحال، صبر يحافظ على أنظمة العقل والنفس من اختلاط الفكر، أو فساد الرأي، صبر يستجلب حب الله ﷻ الذي خصه وحصره للصابرين، دون غيرهم.

وهذا لا يكون عبر ممر الكلمات الجوفاء، إنما عبر قناة الاعتقاد الصادق الذي يؤهل المبتلى علما وتصديقا بوعد الله بالشفاء، وقدرته على إحداثه وتأثيره.

"﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾" اعتقاد بعد اعتقاد، وإيمان إثر إيمان، ينقل المبتلى إلى مرحلة أخرى من مراحل تفعيل الدواء في المرض، استعانة بالله ﷻ، واستجلابا لعطاياه ﷻ، أن يرد عليه دواء قلبه (يوسف وأخيه) ليشفى هذا القلب المتألم، وما كان هذا الطمع في كرم الكريم، إلا بعض إيمان، واعتقاد، وتصديق أنه ﷻ العليم الحكيم.

"﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾" مصاب جلل، وألم شديد، لا يقدره أي أب يملك مسكة من حنان في ولد من أولاده، فما البال في اثنين، فربما ألم جرح نفسي قديم يستطيع الإنسان أن يتعامل معه بطريقة أو بأخرى، فإذا ما جاء ما يهيجه ويثيره، كان الألم أضعافا حينئذ.

فكان المرض العضوي، فقدان البصر، اجتمع ألم إلى ألم، وحزن إلى حزن، وشكوى إلى شكوى، وسر إلى سر، وعلانية إلى علانية، حتى كادت المصيبة أن تفتك بقلب الأب الكبير، الصابر سنين، فخرج أثرها على عينيه، ففقدهما عليه السلام.

ورغم كل هذا المصاب، وكل هذه السنين، إلا أنه عليه السلام لم يترك الصبر لحظة واحدة، فخبأ كل هذا بداخله، بينه وبين سيده، ولم يتخل عن اعتقاده الجازم، وإيمانه الصادق، أن الدواء الناجع، وتأثيره الفعال منه سبحانه.

فكانت هذه الإجابة الصادقة، الدرس الرئيس الدائم لكل مبتلى، لكل مريض، لكل صاحب حاجة: "﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾".

وهذا لا يتوقف على نبي من أنبياء الله ﷻ، إنما منهج حياة، وروشتة دواء لكل إنسان، فوعد الله ﷻ لا يتغير، وقدرته لا تتبدد، وقيوميته لا تنقطع.

كل إنسان ابتلى نفسيا أو عضويا، يستطيع أن ينطقها – عبر الصبر والاعتقاد الصادق، والإيمان الحق – ويقول: "وأعلم من الله ما لا تعلمون"، وهذا ليس رجما بالغيب، إنما حسن اعتقاد في خبر الله ﷻ، واستجلابا لقوته في تفعيل دواء القلوب، أو تأثير الأسباب الحسية في دواء الأبدان.

"﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾"، وهنا كان الفصل الختامي، والتدليل الحق والتصديق العملي على إيمانه واعتقاده، وأقواله وأفعاله.

الثقة في الله ﷻ أن أبناءه بخير، لم يمسهم السوء، تلك الثقة الدواء الأعظم، تمحو اليأس والقنوط والصعاب، تستجلب كل خير وعافية.

فجاء الدواء من الله ﷻ بتدبير الأسباب، وتفعيل التأثير، والكرامة الشفائية، كان القميص الدواء، كان الشفاء لجرح القلب الطويل، كان الشفاء لمرض البدن العليل، كان اللطف من الله ﷻ.

وحتى لا يستغل المداد فيوضات النص الجليل على القلب والعقل، فيستبيح ما يشاء من الكلمات، يتجه قلم الورقة البحثية ناحية نص جليل آخر، ينهل منه القلب والعقل، فيشفى بعطاءاته.

ﷺ يقول – تعالى –: "﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ... ﴾" الآيات[1]. متلازمة الصبر في التاريخ.

عندما يقص الكتاب الحكيم جانبا من حياة الأنبياء، إنما يقصه لأخذ المنهج العملي التنفيذي في حياة المتلقي، فلا يعجز ولا يثقل، فالنموذج دائما ييسر الفعل.

(١) ص: الآيات ٤١ – ٤٤.

وكان من أهم الجوانب التي أولاها القرآن الكريم عناية في حياة هؤلاء الكبار الكرام، الجانب البشري، الجانب الذي يعتريه البلاء، والضعف، والحزن، والمرض.. إلخ، حتى تكون التجربة العملية على كيفية تجاوز هذه التحديات، فضلا عن الخروج منها أكثر ثباتا، ويقينا، وخضوعا، وانقيادا لمنهج الله في أرض الله.

وأحد هؤلاء الأنبياء الكرام على الله ﷻ نبي الله (أيوب) عليه السلام، الذي تعرض له القرآن الكريم بملمح مختلف جدا عن بقية إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

نبي خص في التاريخ بجانب عميق من جوانب النفس الإنسانية، ممارسة عملية لتصحيح مسار هذا الجانب الخطير، وكأن مساره الدقيق هو الخريطة الإرشادية، واللوحة الهندسية لمن أراد النجاة في هذا الشأن خاصة.

"﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ نبي الصبر، كلما ذكر الصبر، ذكر (أيوب) عليه السلام، كلما ذكر البلاء بكل أشكاله، ذكر (أيوب) عليه السلام.

ومع هذا كله، شرفه الله ﷻ بنسبته إليه، "عبدنا"، فلأنه مارس العبودية حقا، ووثق في سيده ومولاه صدقا، واعتقد في قدرة ربه وقيومته إيمانا وطمعا، استحق حينها أن يسمى ويلقب بـ "عبدنا".

أصابته شدة في ماله وأهله، أصابه المرض في جسده وعافيته، أصابه الشيطان[1] بألم في نفسه وروحه، فماذا فعل حينئذ؟ لم يسخط، لم يعترض، لم يقنط، لم ييأس، لم يضجر، لم يتحول عن ربه طرفة عين، إنما كانت العبودية التي اعتنقها صدقا واعتقادا وإيمانا، هي الأرض الصلبة التي استطاع النجاة عليها.

"﴿ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾" انصرف إليه، اتجه إليه، التجأ إليه بجوارحه، بلسانه، بقلبه، وكلما كان الاعتقاد في الرب أقوى وأصدق وأوثق، كلما كان حسن

(١) بدهي أن قانون هذه الورقة البحثية يخص الدرس الموضوعي فقط، فليست محط الحديث عن هذا النصب والعذاب، وكيفيته، ودلالته، وتأويلاته، فضلا عن مرض (أيوب) عليه السلام ونوعه، ومدته، آثاره.. إلخ من تفاصيل البلاء الذي وقع عليه عليه السلام، فهذا شأنه الدرس التحليلي، كما لا يخفى.

اللجوء أسرع، وأشد، وأصدق، كلما كانت الاستجابة والتأثير أسرع، وأشمل، وأجزل.

والتعبير بالضمير المضاف إلى المفعول به في الآيات كلها "ربه" ما يدل على صدق التقرب، وصدق التعلق، وصدق الاكتفاء به سبحانه.

ولكن كيف وصل إلى هذه المرحلة من الاعتقاد والثقة؟ وكيف يصل الإنسان المبتلى إلى هذا الإجراء الأصيل؟

تولى السرد الشريف الإجابة الدقيقة الباقية لكل إنسان ابتلى بأي شكل من أشكال البلاء، فقال ﷻ مجيبا عن هذا السؤال الرئيس: "﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾".

رفع عنه البلاء، فُعِلت متلازمة التأثير والسبب، بُدل حاله كله، أجزل المثوبة في النفس والأهل والمال، رخص له بحكم باق إلى قيام الساعة جزاء وشكورا، خلد اسمه ووصفه ومكانه ومكانته وسيرته، أنموذجا ودليلا إلى يوم الدين.

لماذا كل هذا؟ لأنه عليه السلام – ومن خلفه كل من امتثل نهجه وطريقته – ثبت، وتواضع، واستكان، وشكر، وصبر على هذا المصاب الجلل، فكان صبره، وإقباله، وإنابته الدواء النفسي أولا الذي أدخله في نظام إصلاح النفس والروح، تحت مظلة الإيمان، وانفتاح مغاليق الفرج.

ثم بهذا الدواء النفسي الذي أثنى عليه الله ﷻ به، ومدحه به، استجاب له، ووهبه الدواء الحسي، وتأثيره الشفائي، **عبد مؤمن مصدق، ورب بر رحيم شافي.**

وما كان ذلك إلا ليعلم أهل البلاء والأمراض – اعتقادا وتصديقا وثقة – النسبة الأبدية في قوله – تعالى –: "﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾".

❁❁❁❁❁

وبعد،، فآن للقلم أن يحط رحاله عند هذا المقام، معلنا السطور الأخيرة لهذه الورقة البحثية – بحول الله ونعمته – بعد معايشة جليلة لبعض آيات الكتاب الحكيم، تحت مظلة أسلوبه البديع، وعطاءاته العليّة، وشفائه الحق، ومحاولة لتثوير ما أربو إليه في حقل الدراسات القرآنية، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، المنعم بنعمه قبل استجلابها، المديمها على وجه الكون رغم قلة شكرها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ المبلغ عن ربنا، بلاغا نقيا، عملا وقولا نديا، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد هذه الرحلة المباركة – ببركة كتاب الله ﷻ – في معايشة أحد موضوعاته الشريفة، ومصاحبة أنفاس سادتنا من أهل التفسير عبر الزمان الطيب، حانت الآن آخر محطات هذه الورقة البحثية، لتكون بضع كلمات، تمثل أهم نتائج هذه الورقة ومنتجها في حقل الدراسات القرآنية عامة، والدرس الموضوعي خاصة.

أولا: <u>أهم النتائج المستخلصة</u>:

- ما ابتلي أحد بلاء أشد من المرض، وما أعطي أحد عطاء أعلى من العافية، فاللهم نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.
- أشار الكتاب الحكيم عبر منظومة المرض إلى نوعين من المرض، على أعتاب المقارنة بينهما، تظهر ملامحهما سريعا، فالأول: يعنى بالمرض البدني، والثاني: يعنى بالمرض القلبي وملحقاته من سبب، وموطن، ونتيجة.
- نظرة الرب الكريم إلى أصحاب النوع الأول نظرة الرحمة، والتيسير، والغفران، والرفعة، على حين التقابلية بنظرة الغضب والتوبيخ والأخذ لأصحاب النوع الثاني، على فرضية اسمراريته.
- عبر القرآن الكريم عن النوع الثاني من الأمراض – مرض القلب والروح – بمصطلحية المرض، ليأخذ بعقلية المخاطب إلى العناية الكبرى بعلاجه، وسرعة استئصاله، تماما كالمرض البدني الذي ينشط لعلاجه والبحث عن أسباب الشفاء، فالآخر القلبي أحق وآكد.
- قوة ظهور ثنائية المرض والشفاء في النص الحكيم، فلما كان ذكر أمراض القلوب في القرآن الكريم بشكل أوسع من أمراض الجسد، ناسبها تقابليا ورود شفاء القلوب والصدور بصورة أوسع من شفاء الجسد، مما يدل على هذه الثنائية، وأهمية العناية بها.

- القرآن الكريم أصل أصيل في شفاء الأمراض الروحية والقلبية والنفسية، وأصل لتأصيل الاستشفاء بالأدوية المادية، كسبب بيد الله ﷻ.
- بالاعتقاد الصادق، والتسليم الحق، يستجلب الإنسان تأثير الشفائية الكاملة من أمراضه الظاهرة والباطنة.

ثانيا: <u>أهم التوصيات المرجوة</u>:

إن كان من توصيات في هذا المقام فهي: همسي في أذن المعنيين بمثل هذه الدراسات البحثية، أن ينهضوا إلى معالجة قضايا التفسير الموضوعي للموضوعات الحضارية والمجتمعية، تحت مظلة النص الأقدس، ومحاولة استنطاق النص الشريف بما يسعف الحاجة الإنسانية في المعالجة والتنظير والتقديم.

وإني لأؤمن إيمانا شديدا، أن النص الشريف لازالت عطاءاته هي الحقل البكر الذي ينتج للعصور والعقول النظريات والحلول والممارسات الحضارية، التي تنهض بواقع المخاطب، وتأخذ بيديه إلى الغرض الأم للكتاب الحكيم، سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة.

فخطاب الله ﷻ كليّ النفع والصلاح والنجاة، وهذا كله لن يعطي نتاجه الأكبر للإنسان المعاصر – كما استطاعه الإنسان الأول، فنهضت به الدنيا وسعدت به الحياة – إلا من خلال القناة الخطابية التي تناسب عصره، وتراعي أزمته ومنتجه.

وهذا ما حاولت الورقة البحثية إنتاجه: أن الدرس الموضوعي من أهم القنوات الخطابية التي تقدم النص غضا طريا نديا، تنجو به الدنيا، كما به نجاة الآخرة.

والله أسأل أن يمن علينا من فضله وكرمه بالرضا والقبول، وأن يختم لنا بالحسنى ورضوانه الأسنى، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

الباحث..

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الإتقان في علوم القرآن. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م.

أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع. عبد العال سالم مكرم، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت – ط: الأولى، ط: ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، تحقيق: دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ.

أساس البلاغة. لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى، ط: ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

أساسيات علم الأمراض. د. حسين عبد الستار، كلية الطب البشري – جامعة دمشق – ٢٠٢١م.

أصول علم النفس. د. أحمد عزت راجح، ط: دار المعارف – القاهرة – ط: ١٩٨٥م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، ط: دار الفكر – لبنان – ط: ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

أضواء على المحرمات الإسلامية. طارق محمد علي، ط: دار الكتب والوثائق – بغداد – ط: ١٩٩٠م.

الإعجاز الطبي في القرآن الكريم. د: جمعة سمين قادر، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية (م/٧، ع/٣) ط: ٢٠٢٢م.

الإعجاز الطبي في القرآن الكريم. سعيد صلاح الفيومي، ط: مكتبة القدس ١٤٢٦هـ.

الإعجاز الطبي في القرآن. د: السيد الجميلي، ط: دار الهلال – بيروت – ط: ١٩٩٠م.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل. ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط: الأولى ١٤١٨هـ.

الآيات الكونية في القرآن الكريم. د: زغلول النجار، ط: مكتبة الشروق الدولية، ط: الأولى ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

إيجاز البيان عن معاني القرآن. أبو القاسم محمود بن أبي الحسن النيسابوري، تحقيق: حنيف القاسمي، ط: دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط: الأولى ١٤١٥هـ.

بحر العلوم. أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

البحر المحيط في التفسير. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط: دار الفكر – بيروت – ط:١٤٢٠هـ.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد. أحمد بن محمد بن عجيبة، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: ١٤١٩هـ.

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: محمد علي النجار، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – ط: ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

البيان في إعجاز القرآن. د. صلاح الخالدي، ط: دار عمار للنشر والتوزيع، ط: الثالثة ١٩٩٢م.

تاج العروس من جواهر القاموس. محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، ط: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ط: ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١ م.

تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعصر الوسيط. جورج شحاته قنواتي، ط: مؤسسة هنداوي، ط: ٢٠١٩م.

التحرير والتنوير. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط: الدار التونسية – تونس – ط: ١٩٨٤هـ.

التسهيل لعلوم التنزيل. أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، بن جزي، تحقيق: د. عبد الله الخالدي، ط: شركة دار الأرقم – بيروت – ط: الأولى ١٤١٦هـ.

التعريفات. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

التفسير البسيط. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: مجموعة باحثين، ط: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام – ط: الأولى ١٤٣٠هـ.

تفسير القرآن الحكيم. محمد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٩٩٠م.

تفسير القرآن العزيز. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ط: الفاروق الحديثة – القاهرة – ط: الأولى ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م.

تفسير القرآن العظيم. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط: دار طيبة، ط: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

التفسير الكبير. أبو عبد الله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط: الثالثة ١٤٢٠هـ.

تفسير المراغي. أحمد بن مصطفى المراغي، ط: مصطفى البابي الحلبي، ط: الأولى ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. د وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر المعاصر – دمشق – ط: الثانية ١٤١٨هـ.

التفسير الوسيط للقرآن الكريم. أ.د: محمد سيد طنطاوي، ط: دار نهضة مصر – القاهرة – ط: الأولى ١٩٩٧م.

التفسير الوسيط. د وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط: دار الفكر – دمشق – ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

تفسير عبد الرزاق الصنعاني. أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د. محمود محمد عبده، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٩هـ.

تفوق الطب الوقائي في الإسلام. د: عبد الحميد القضاة، من أعمال مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ط: الجامعة الإسلامية، ط: الأولى ١٩٨٧م.

تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية. أحمد بن إدريس القرافي، ط: عالم الكتب – بيروت – بدون تاريخ.

تهذيب اللغة. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط: الأولى ٢٠٠١م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط: دار هجر، ط: الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

جامع البيان في تفسير القرآن. محمد بن عبد الرحمن بن محمد الإيجي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

الجامع لأحكام القرآن. أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة – ط: الثانية ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض، ط: دار إحياء التراث العربي، ط: الأولى ١٤١٨هـ.

حياة النحل. تأليف: موريس ماترلينك، ترجمة: ميشيل تكلا، ط: الدار القومية – القاهرة – بدون تاريخ.

الحيوان في القرآن الكريم. د: زغلول النجار، ط: دار المعرفة – بيروت – ط: الأولى ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

روح البيان. إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي، ط: دار الفكر، بدون تاريخ.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٥هـ.

زاد المسير في علم التفسير. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط: دار الكتاب العربي – بيروت – ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

الزاهر في معاني كلمات الناس. محمد بن القاسم بن محمد الأنباري، تحقيق: د. حاتم الضامن، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت – ط: الأولى ١٤١٢ هـ -١٩٩٢م.

زهرة التفاسير. الشيخ/ محمد أبو زهرة ، ط: دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير. محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ط: مطبعة بولاق، ط: ١٢٨٥هـ.

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور، ط: دار العلم للملايين، ط: الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

صحيح الإمام البخاري. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ط: الأميرية، ط: ١٣١١هـ.

صحيح الإمام مسلم. أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط: ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥م.

الطب النفسي المعاصر. د. أحمد عكاشة، ط: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ط: ١٩٩٢م.

الطب الوقائي في الإسلام. د: أحمد شوقي الفنجري، ط: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط: الثالثة ١٩٩١م.

عقل غير هادئ. كاي ردفيلد جاميسون، ترجمة: حمد العيسي، ط: الدار العربية للعلوم – بيروت – ط: الأولى ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

العلاج النفسي في القرآن الكريم. إبراهيم النعمة، ط: دار المأمون، بدون تاريخ.

العلاج النفسي والعلاج بالقرآن. د. طارق بن علي الحبيب، ط: مؤسسة الجريسي، ط: الثالثة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

العلاج بالماء. د: محمد السقا عيد، ط: الألوكة، ط: ٢٠١٣م.

العلاج بالماء. ماهر حسن محمود، ط: دار الندى – الإسكندرية – ط: ٢٠٠٦م.

علم الأوبئة. تأليف: رودولفو ساراتشي، ترجمة: أسامة فاروق، ط: مؤسسة هنداوي، ط: الأولى ٢٠١٥م.

عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. للسمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية . بيروت . ط: الأولى ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان. نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٦هـ.

الغريبين في القرآن والحديث. أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط: الأولى١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.

فتح البيان في مقاصد القرآن. أبو الطيب محمد صديق خان، ط: المَكتبة العصريَّة – بَيروت – ط: ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

فتح الرحمن في تفسير القرآن. مجير الدين بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، تحقيق: نور الدين طالب، تحقيق: دار النوادر، ط: الأولى ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليمني، ط: دار الكلم الطيب – دمشق –

ط: الأولى ١٤١٤هـ.

فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، ط: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط: الأولى ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.

الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري، تحقيق: هاني الحاج، ط: المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.

القاموس المحيط. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، ط: مؤسسة الرسالة، ط: الثامنة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

كتاب العين. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د مهدي المخزومي، ط: مكتبة الهلال، بدون تاريخ.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ط: دار الكتاب العربي – بيروت – ط: الثالثة ١٤٠٧هـ.

الكشف والبيان عن تفسير القرآن. أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: عدد من الباحثين، ط: دار التفسير – جدة – ط: الأولى ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.

اللباب في علوم الكتاب. أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار الكتب العلمية، ط: الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

لسان العرب. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن منظور الإفريقي، ط: دار صادر – بيروت – ط: الثالثة ١٤١٤هـ.

لطائف الإشارات. عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: الثالثة بدون تاريخ.

لمحة موجزة عن تاريخ الطب النفسي في بلاد المسلمين. د. طارق الحبيب، ط: دار المسلم – الرياض – ط: الأولى ١٤١٩هـ.

محاسن التأويل. محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤١٨هـ.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤٢٢هـ.

المحكم والمحيط الأعظم. أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

المحيط في اللغة. أبو القاسم إسماعيل بن عباد، تحقيق: محمد آل ياسين، ط: عالم الكتب – بيروت – ط: ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل. أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط: دار الكلم الطيب – بيروت – ط: الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

معالم التنزيل في تفسير القرآن. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، ط: دار طيبة، ط: الرابعة ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

معاني القرآن وإعرابه. إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، ط: عالم الكتب – بيروت – ط: الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم. أ.د/ محمد حسن جبل، ط: مكتبة الآداب . القاهرة . ط: الأولي بدون تاريخ.

معجم ألفاظ القرآن الكريم. ط: مجمع اللغة العربية، ط: ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم. عبد الله إبراهيم جلغوم، ط: مركز تفسير – الرياض – ط: الأولى ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.

المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم. محمد بسام رشدي الزين، ط: دار الفكر – بيروت – ط: الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الحديث – القاهرة – بدون تاريخ.

معجم لغة الفقهاء. محمد رواس قلعجي، ط: دار النفائس – بيروت – ط: الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

معجم مقاييس اللغة. أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط: دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

المفردات في غريب القرآن. أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، راجعه/ وائل أحمد عبد الرحمن، ط: المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.

الموسوعة المصرية لتغذية الإنسان. يوسف كامل، ط: الدار العربية – القاهرة – بدون تاريخ.

النبات في القرآن الكريم. د: زغلول النجار، ط: العبيكان – الرياض – ط: الأولى ١٤٣٦هـ.

نحل العسل في القرآن والطب. د: محمد علي البني، ط: دار المعارف، ط: الثانية ١٩٩٥.

نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت – ط: الأولى١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، ط: دار الكتاب الإسلامي – القاهرة – بدون تاريخ.

النكت والعيون. أبو الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد عبد المقصود، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ.

الهداية إلى بلوغ النهاية. أبو محمد مكي بن أبي طالب، تحقيق: د. الشاهد البوشيخي، ط: جامعة الشارقة، ط: الأولى ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.

الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز. لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: محمد حسن أبو العزم، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط: ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط: دار القلم – بيروت – ط: الأولى ١٤١٥هـ.

الوسيط في تفسير القرآن المجيد. أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، ط: دار الكتب العلمية – بيروت – ط: الأولى١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

اليقطين أو الدباء العربي غذاء الرسول الكريم ﷺ وعلاج لكل الأمراض. لرضا محمد السيد علي، ط: مؤسسة ابن خلدون، ط: الأولى ٢٠٠٤م.